مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٩) العدد (١٣) ٢٠٢٥
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (9) No. (13) 2025

شِعرُ التَّصَوُّفِ في مملكة غرناطة
(٦٣٥ .٨٩٧هـ)

د. نبيل سالم سلمان

(تاريخ الإيداع ١٠/١٢ /٢٠٢٥. قُبِل للنشر في ١٢/١١ /٢٠٢٥)

□ ملخّص □

إنَّ وقفةً على ديوانِ الشِّعرِ في مملكةِ غرناطة تُطلعنا على مدَى اتِّساعِ مَساحةِ القصيدةِ الصّوفيّة في هذِهِ المرحلةِ مِنْ حياةِ دولةِ الإسلامِ المتأخرةِ في الأنْدَلُس.

لقد تَغيَّرتْ مَفَاهيمُ التَّصَوُّفِ الإسلاميّ وَتَبَدْلَتْ عبرَ رحلتِهِ الطَّويلةِ، مُنْذُ أنْ نشأ امتدَاداً لِلزُّهدِ وَالعبَادةِ، إلى أنْ صَارَت لهُ طُرُقٌ تَختلفُ، تبعاً لأهوَاءِ الأتبَاعِ وَعَقِيدتهم وَفكرِهم.

وفي عهدِ بَنِي الأحْمَرِ في الأنْدَلُسِ، اختلطَتْ مفَاهيمُ الزُّهدِ بِالتَّصَوُّف؛ مِمَّا دَفعَ الكتَّابَ وَالأدباءَ إلى تَخصيصِ مُؤلفَاتٍ أو فصُولٍ لِبيانِ هَذِهِ المَفَاهيمِ وَإيضَاحِها

وَمِنْ خلالِ المُتَابعةِ لهَذِهِ الظَّاهرةِ عندَ شعرَاءِ غَرْنَاطَة وَجْدنَا أنَّ هناكَ طَائفتينِ مِنْ الشُّعَراءِ اهتمَّتَا بِالتَّصَوُّفِ، عِلماً وَأدَباً، فِئةٌ مُتَصوِّفةٌ اتَّخَذَتْ هَذَه الطريقة سُلُوكاً في حيَاتِهَا، فَانعكَسَ عَلَى أدبِهَا، شِعْراً وَنَثراً، وَفِئةٌ أخرى أسْهَمَتْ فِي علمِهِ وَأدبِهِ من دونَ أنْ تَتَّخِذُوه سُلُوكاً، فَكَانَ نِتَاجُهَا الشِّعريُّ انعِكَاساً لتفكيرِهَا العقليّ، بعيداً عن العَوَاطفِ والمشَاعِرِ الذَّاتِيةِ .

وبعد الاطلاعِ الدَّقيقِ عَلَى مَوضُوعَاتِ عِلمِ التَّصَوُّفِ في المصَادِرِ الَّتِي تَنَاولتْ عصرَ غَرْنَاطَة وَجَدْنا كَثيراً مِنهَا ضِمْنَ الشِّعرِ الغِرْنَاطِيّ، فَوقَفْنَا عَلَى ذِكرٍ للجوَاهِرِ الرُّوحَانيَّةِ، مِنْ قَلْبٍ، وَرُوحٍ، وَنَفْسٍ، وَعَقلٍ، وَأحوَالِهَا، وَنصوصٍ في المَحَبَّة، وَالمَعْرِفةِ، وَمَا يتعلَّقُ بهمَا، وَأخرى للكَمَالِ، وَالجمَالِ، وَالاعْتِبَارِ بِالطَّبيعةِ، وَوَقَفْنَا عَلَى أمثِلَةٍ مِنَ التَّوبةِ، وَالخَوفِ، والرِّضَا، وَغيرهَا. وَكلُّهَا تُمثِّلُ قضَايَا وَموضُوعَاتِ علمِ التَّصَوُّفِ وَمُصطلحَاتِهِ المُتَدَاولةِ في العَصرِ الأنْدَلُسيّ وَالَّذِي سبَقَهُ.

كلمات مفتاحية: التصوّف ، الجوهر ، الرّوح ، العقل ، القرب ، البعد .

---

* أستاذ مساعد في قسم تربية الطفل ،كلية التربية . جامعة اللاذقية، اختصاص: لغة عربية أدب أندلسي.

مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٩) العدد (١٣) ٢٠٢٥
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (9) No. (13) 2025

The Influence of Sufism on Poetry in the Kingdom of Granada (635–897 AH)

Dr. Nabil Salem Salman

□ ABSTRACT□
(Received 12/10 /2025. 11 /12/2025)

A close examination of poetry in the Kingdom of Granada allows us to explore the extent to which Sufi concepts shaped literary production during this period of Islamic life in Al-Andalus.

Sufism introduced profound spiritual concepts to Andalusian poetry, shaped by the long journeys of mystics and their pursuit of purity, devotion, and transcendence. This led to the creation of a rich poetic language imbued with Sufi terminology, which poets used to express their visions and thoughts.

Poets frequently employed Sufi symbols and terminology such as the beloved, longing, intoxication, and union, giving their works deeper spiritual dimensions. This fusion between emotional passion and spiritual longing became a defining feature of Andalusian poetry during this time.

By studying these poetic works, we observe that Sufi influence was not limited to style and imagery; it also shaped the very essence of poetic experience. Poets expressed feelings of closeness and distance from the Divine, spiritual bewilderment, and the beauty of creation, using poetic images that merged the material with the spiritual.

Furthermore, this influence extended to other sciences, as many works on Sufism, philosophy, and other fields were written during this period, demonstrating the interconnectedness of thought and creativity in the Kingdom of Granada.

An in-depth exploration of these poetic texts and related sources reveals a sophisticated cultural environment that embraced the convergence of spirituality, philosophy, aesthetics, and science. This created a unique intellectual movement that reflected the special character of Sufism in Granada, shaped by its cultural and historical context.

Keywords: Sufism, Essence, Spirit, Intellect, Nearness, Distance.

*Dr. Nabil Salem Salman , Assistant professor in the Department of Child Education , Faculty of Education , Lattakia University . Major : Arabic Literature

. مقدّمة:

إنَّ قِرَاءةً دَقِيقَةً لِموضُوعَاتِ القَصِيدةِ الأنْدَلُسيَّةِ عَلَى عَهدِ بَنِي الأحْمَرِ تُظهِرُ أنَّ الدِّينَ يُمثِّلُ قَضِيَّةً محْوَرِيَّةً كُبرَى مِنْ قَضَايَا الشَّاعِرِ الغرنَاطيّ، فَهُوَ يَتَنَاولُهُ مِنْ خِلالِ المَدَائحِ النَّبويَّةِ، وَالتَّصَوُّفِ، وَالزُّهدِ، وَالتَّوسُّلِ، وَالمَوْلِدِيَّاتِ، وَكلُّهَا مَوْضُوعَاتٌ دِينيَّةٌ بِصُورةٍ كُلِّيَّةٍ، أو غَالِبَة.

فَالدِّينُ فِي عَهْدِ غَرْنَاطَة، وَقبلَها وَبعدَهَا، وَحتَّى الوَقتِ الحَاضِرِ، يَدخُلُ فِي قَصَائدِ أخرى، بِصُورةٍ جزئيَّةٍ، كَمَا في مَوضُوعَاتِ الجِهَادِ، وَالاستِغَاثةِ، وَالحَنينِ إلى الأوْطَانِ، وَوَصْفِ الطَّبيعةِ، وَالرِّثَاءِ، وَالمَدْحِ.

وكان لهذا التوجه عند شعراء غرناطة الأثر الواضح في نتاج قصائد شعرية تعطي فكرة جليّةً عن الواقع الذي يعيشه الشّاعر الغرناطي من النواحي الفكرية والاجتماعية ومدى وإلى أي مدى تعلّق الشّاعر بما أمن به واتخذه سلوكاً حياتياً.

. أهمّيةُ البَحْثِ وَأهدَافُهُ:

يُحاولُ البحثُ الوقوفَ عَلَى المضامين الصُّوفية في القصيدة عند شعراء غرناطة؛ بغيةَ قراءة كلّ محورٍ قراءةً نصّيّةً تحليليَّةً تظهرُ مظاهرَ إبداع الشَّاعرِ الغرناطيّ من جهة، ومكامنَ محاكاته أسلافه من جهةٍ أخرى، فضلاً عن بيان السِّماتِ الفنّيَّةِ للقصيدةِ الصّوفية الغرناطيَّةِ.

وَيَسْتَمدُّ البحثُ أهمّيته مِنْ خلالِ إبرَازِ عَنَاصرِ تَشْكِيلِ القَصِيدةِ الصّوفية الغرناطيَّة، وَمَا تروم إليه، في ظلِّ عهدٍ بَدَأتْ معه مَرحلةُ بِدَايةِ النِّهايةِ لدولةِ الإسلامِ في الغربِ، بل تجَاوزتْ خطوَاتِ الزَّوالِ الأولى.

. طرائق البحثِ ومواده:

يَتَّخِذُ البحثُ مِنَ المَنْهجِ الوَصْفي، بصفةٍ أساسيَّةٍ، طريقاً للوصُولِ إلى رؤى المضامينِ النَّصِّيَّةِ، من خلالِ فرزِ كلِّ محورٍ من محاورِ القَصيدةِ الصّوفية على حدة، ثمَّ الاتكاء على المنهجِ التَّحليليّ النَّصِّيّ المُتكاملِ، الَّذي يتَّخذُ القصيدةَ وِحدةً مُتكاملةً، بهدفِ التَّعَاملِ مع المُنْتجِ الشِّعريّ بشكلٍ موضوعيٍّ بعيدٍ عن التَّأثُّر أو التَّقيُّد بفكرٍ مُحددٍ.

شِعرُ التَّصَوُّفِ في مملكة غرناطة:

تعدَّدتِ تعريفَاتُ التّصوّف، فَمِنها أنَّه "تصفيةُ القَلبِ" و"تَرْكُ الاختيَارِ" وَ"التَّخلُّقُ بِالأخلاقِ الإلهيَّة"[١]، وَبذلُ المجهُوَدِ وَالأنسُ بِالمعبود، وَ"حالٌ تَضمحلُّ فيها معَالمُ الإنسانيَّة" إلى غيرِ ذلك من التَّعريفَاتِ[٢]، وَقَد يلتقي في بعضِ التَّعريفات بالزُّهد. أمَّا لغويّاً، فإنَّ لِبْسَ الصُّوفِ علامةٌ عَلَى الزُّهدِ، تشبهاً بالعُبَّاد وَأهل الصَّوَامعِ[٣].

---

(١) الكاشاني، عبد الرزاق: معجم اصطلاحات الصُّوفيَّة، تحقيق عبد العال شاهين(دار المنار، بيروت، ط١، ١٩٩٢م) ص١٧٤.

(٢) يُنْظَر هَذِهِ التَّعريفات وغيرها في: القشيري، عبد الكريم بن هُوَزان: الرِّسالة القشيرية في علم التَّصوُّف، تحقيق: معروف زريق وعلي عبد الحميد بلطة جي (دار الخير،ط١، دمشق،١٩٨٨)من ص٢٧٩ إلى٢٨٣.

(٣) يُنْظَر: الزَّبيدي،السيد مرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس(مكتبة الحياة، بيروت،د.ت) مادة: صوف.

وفي عهدِ بَنِي الأحْمَرِ في بالأنْدَلُسِ، اختلطَتْ مفَاهيمُ الزُّهدِ بِالتَّصَوُّف؛ مِمَّا دَفعَ الكتَّابَ وَالأدباءَ إلى تَخصيصِ مُؤلفَاتٍ أو فصُولٍ لِبيانِ هَذِهِ المَفَاهيمِ وَإيضَاحِها، كَمَا نجدُ عند ابنِ عزيمٍ الأنْدَلُسيّ، إذ خصَّصَ فَصلاً لِلزُّهدِ، فَضمَّنهُ مَقطُوعَاتٍ صُوفيَّةً[٤] .

وَحتَّى في العَصْرِ الحَديثِ تنَاولتْ بَعضُ الدِّرَاسَاتِ الزُّهدَ وَالتَّصَوُّفَ مُمتزجَينِ، تَحتَ ظلِّ الحيَاةِ الدِّينِيَّة، وَهَذَا يَدلُّ عَلَى عُمْقِ الصِّلاتِ بين المَوضُوعين.

وَلكن، وعَلَى الرَّغمِ مِنْ وجُودِ نقَاطِ التقَاءٍ كَثيرةٍ بينَ المَوضُوعِين، يَبْقَى الفَرقَ جليّاً بينهما، وَيَظلُّ لِكُلٍّ منهمَا أفكَارُه وَلغتهُ وَأخيلتُهُ .

فَنقطةُ ارْتكَازِ الزُّهدِ عندَ أصحَابِهِ هي الإعرَاضُ عن شهوَاتِ الحياةِ الدُّنيا، في حين نَجدُ "المَحَبَّة" مُرْتكزَ الأدبِ الصُّوفيّ؛ لأنَّها أصلُ المقاماتِ الصُّوفيَّةِ، كَمَا يقول ابن الخَطِيبِ [٥].

وَلكنَّ ابنَ خلصُون[٦] يَرى أنَّ الزُّهدَ مَقَامٌ مِنَ المقَامَاتِ الصُّوفيَّة الَّتِي تَرجعُ إلى المَحَبَّة[٧]؛ وهُوَ ما يفسِّرُ التَّمَازجَ بين حيَاةِ الزَّاهدِ وَالصُّوفيّ، وَيبقى الفَرقُ بينَ الفَرْعِ والأصلِ في أنَّ الزُّهد يُمثِّلُ مقدِّمةً لحيَاةِ التَّصَوُّفِ، قَدْ يَنْتَهِي عندهَا الزَّاهِدُ، فَلا يَذهبُ بَعيداً في مُصطلحَاتِ القَومِ وَمسَالِكِهم، وَلكنَّهُ قَدْ يُشَاركُهم شَطحَاتِهم وَمَنَاهجَ تَفْكيرِهم، فَيَصيرُ صوفيّاً زَاهِداً .

أوَّلاً: الشُّعرَاءُ وَالتَّصَوُّفُ :

المتتبع للشعر الصوفي في العهد الغرناطي يجد أنَّ هناكَ طَائفتينِ مِنْ الشُّعَراءِ اهتمَّتَا بِالتَّصَوُّفِ، عِلماً وَأدَباً، فِئةٌ مُتَصوِّفةٌ اتَّخَذَتْ هَذه الطريقة سُلُوكاً في حيَاتِهَا، فَانعكَسَ عَلَى أدبِهَا، شِعْراً وَنَثراً، وَفِئةٌ أسْهَمَتْ فِي علمِهِ وَأدبِهِ دونَ أنْ يَتَّخِذُوه سُلُوكاً، فَكَانَ نِتَاجُهَا الشِّعريُّ انعِكَاساً لتفكيرِهَا العقليّ، بعيداً عن العَوَاطفِ والمشَاعِرِ الذَّاتِيةِ .

فأبو طاهرٍ مُحَمَّد بن صفوان[٨]، الَّذِي قالَ فيه ابنُ الخَطِيبِ إنَّه (آخر المُتَشَوِّقينَ لِمَقَاماتِ الصُّوفيَّة)[٩] وَهُوَ صَاحبُ تأليف في التَّصَوُّفِ، وَشعرُهُ قليلٌ، وَلكنَّهُ يدلُّ عَلَى اتِّجَاهِهِ الصُّوفيّ[١٠]، من الَّذِين انعَكسَ التَّصوُّفُ عَلَى سلُوكِهِ وَأدبِهِ.

---

(٤) ابن عزيم، علي بن عزيم الأنْدَلُسي: مختارات ابن عزيم الأنْدَلُسيّ، تحقيق عبد الحميد الهرامة(الدَّار العربية للكتاب، ليبيا وتونس،١٩٥٩م).ص ٨٩ .

(٥) يُنْظَر: ابن الخَطِيبِ، محَمَّد بن عبد الله لسان الدين السلماني: رَوْضَةُ التَّعْرِيفِ، تحقيق عبد القادر عطا(دار الفكر العربي، القاهرة،، د.ت)ص٤٠٦.

(٦) مُحَمَّد بن يوسف بن خلصون، يُكَنَّى أبا القاسم، روطيُّ الأصل سكن غَرْنَاطَة ومالقة، إمام في التَّصَوُّف، ضليع في العلوم العقلية ، يُنْظَر: ابن الخَطِيبِ: الإحَاطَة في أخبار غَرْنَاطَة، تحقيق محَمَّد عبد الله عنان (مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٧٣م)٢٥٦/٣ .

(٧) يُنْظَر: ابن الخَطِيبِ: رَوْضَةُ التَّعْرِيفِ، ص ٤٠٦

(٨) مُحَمَّد بن أحمد بن حسين بن يحيى بن الحسين بن صفوان القيسي، يُكَنَّى أبا طاهر، ويُعْرَف بابن صفوان، ألّف في التَّصَوُّف عَلَى عهد السلطان أبي الحجَّاج ، يُنْظَر: ابن الخَطِيبِ: الإحَاطَة ٣/ ٢٣٦ .

(٩) ابن الخَطِيبِ: الكَتِيبَة الكَامِنَة في من لقيناه بالأنْدَلُسِ مِنْ شعراءِ المائة الثَّامنة: تحقيق د. إحسان عباس(دار الثَّقافة، بيروت،١٩٦٣م) ص ٥٤ .

(١٠) يُنْظَر: ابن الخَطِيبِ: الإحَاطَة ٢٣٨/٣، والكَتِيْبَة، ص ٥٥.

وَكذلك أبو جعفرٍ ابنِ الزَّيَّات الَّذِي أَلَّفَ في هَذَا الفنِّ كُتباً منها: "اللَّطائفُ الرُّوحَانيَّةُ والعَوَارِفُ الرَّبانيَّة"[١١] وهُوَ (الخَطِيبُ المُتَصوِّفُ الشَّهِير)[١٢]، نَقرأ في شِعرِهِ مَا يدلُّ عَلَى رُوحٍ مُتَعلِّقة بِالتَّصَوُّف، يَقُولُ في مَطْلَعِ قطعةٍ:

شُهُـــوَدُ ذَاتِكَ شَـــيٌ عَنْكَ لَـــوْ كُنْتَ تُدْرِكُهـُ لَمْ يَبْقَ مَحْجُـــوبُ مَطْلُـــــوبُ [١٣]

وَنرَى إبراهيمَ بن الحاج النُّميريّ، الَّذِي انقطعَ للتَّبتُّلِ في تلمسَان (مُؤْثِراً للْخُمُولِ، عَزِيزَاً بِهِ ذَاهِباً مَذْهَبَ النَّجِلَّةِ مِنَ التَّجْرِيدِ والعُكُوفِ بِبَابِ اللهِ) وَلَهُ تأليفٌ في التَّصَوُّفِ سمَّاه:(اللِّباس والصُّحبة)، وَقالَ عنه ابنُ الخَطِيبِ:(وَهُوَ الَّذِي جُمِعَتْ فِيهِ طُرُقُ المُتَصوفَةِ المُدَّعَى أَنَّهُ لَمْ يُجْمَعْ مِثْلُهُ)[١٤].

وَمِنَ الشُّعَرَاءِ أبو جعفرٍ أحمدُ بن صفوَان، الَّذِي قَالَ عنهُ ابنُ الخَطِيبِ إنَّهُ (مُشَارِكٌ فِي الْفَلْسَفَةِ وَالتَّصَوُّفِ) وَأوردَ بعضَ شعرِهِ في التَّصَوُّفِ، وَمنهُ معَارضَاتٌ لابنِ سينا، وَلَهُ ديوَانٌ ضمَّنهُ قصَائدهُ الزُّهديَّةَ والصُّوفيَّةَ، وَكتَابٌ سمَّاهُ "مطلع الأنوَارِ الإلهيَّة[١٥]، وَيبدو مِنْ عنوانِهِ أنَّه دَاخلٌ إلى عَالمِ التَّصَوُّف .وهذا كله يدلل على أن الشّعراء الذين اتخذوا هذه الطريق مسلكاً في حياتهم لعبت دوراً مهماً في طريقة تفكيرهم وسلوكهم الفكري والاجتماعي.

أمَّا ابنُ الجَيَّابِ فَلا شكَّ بأنَّ أشعاره تُنْبئ عن دخولِهِ عالمَ التَّصَوُّف، فضلاً عن أخبارِ صلاحِهِ وتقواه، فَقَدْ وَسَمَهُ تلميذُهُ ابنُ الخَطِيبِ بمَا كَانَ عليه من(مُرَاقَبَةٍ لِرَبِّهِ، وَانْتِشَاقٍ لِرُوحِ اللهِ مِنْ مَهَبِّهِ، وَأُنْسِ الأسْحَارِ يُقْرِيهَا مِنْ الأوْرَادِ خَيْرَ قِرىً، ثُمَّ يَبْكِي مُعْتَذِراً عَنْ جَهْدِهِ وَمُحْتَقِراً)[١٦]، وَقَالَ فِي مَوضعٍ آخر:(صَاحِبُ مُجَاهَدَةٍ وَمُلاَزَمَةِ عِبَادَةٍ عَلَى طَرِيقَةٍ مُثْلَى مِنْ الانْقِبَاضِ وَالنَّزَاهَةِ وإِيثَارٍ للتَّقَشُّفِ، مُحِبّاً فِي أَهْلِ الْخَيْرِ وَالصَّلاَحِ ، مُشَارِكاً فِي عِلْمِ التَّصَوُّف)[١٧] .

أمَّا عنْ رؤيتِهِ للتَّصَوُّفِ فَكَانتْ تَتَمحورُ عَلَى تَنْقِيةِ القَلبِ مِنْ هوى الدُّنيا وَالإعرَاضِ عنهَا، ومَا لباسُ الصُّوفِ وإظهارُ الزُّهدِ إلاَّ مظهرٌ خَارجيٌّ، يقولُ:

لَيْسَ الطَّرِيقُ لِمَنْ أَرَادَ سُلُوكَهُ حَقاً بِلُبْسكَ صُوفَكَ الْمَرْقُوعِ

إِنْ كُنْتَ تَطْمَعُ فِي اللَّحَاقِ بِأَهْلِهِ فَاغْسِلْ هُوَى الدُّنيا بِمَاءِ دُمُوعِ [١٨]

وَيَبقَى تصوُّفُ ابن الخَطِيبِ شَاغلَ الدَّارسينَ، العربِ والمُستشرِقِينَ، وَكتابُهُ "رَوْضَةُ التَّعْرِيفِ بالحبِّ الشَّرِيفِ" مِحورَ الدَّرسِ عند النُّقَّادِ وَالبَاحثينَ.

---

(١١) ابن الخَطِيبِ: الكَتِيْبَة، ص ٣٥.

(١٢) ابن الخَطِيبِ: الإحَاطَة ٢٨٧/١

(١٣) ابن عزيم: مختارات ابن عزيم، ص ٨٩ .

(١٤) ابن الخَطِيبِ: الإحَاطَة ٢٤٤/١-٣٤٧ .

(١٥) المصدر السابق ١/ ٢٢٢-٢٢٣ -٢٢٩ .

(١٦) ابن الخَطِيبِ: الكَتِيْبَة، ص ١٨٣ – ١٨٤ .

(١٧) ابن الخَطِيبِ: الإحَاطَة ٤/ ١٢٥ .

(١٨) علي محَمَّد بن الجيَّابِ، أبو الحسن: الدِّيوان(صورة من مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم٢٤٢٤،ولم يحقق حتَّى الآن) ص ١٢٠ .

وَلَعلَّ توسُّعَ هَذِهِ الظَّاهرةِ نعرفُه من متابعةِ سيرةِ ابنِ الخَطِيبِ نفسِهِ؛ فعندمَا لمسَ عنايةَ الغنيّ بالله بالمتصوِّفةِ وَتقريبهم من مجالسِهِ، رَاحَ ينظمُ شعراً يَسْتَوحِي فيه معانيهم ومفرداتِ معجمهم الصُّوفيّ، ولم يقفْ عند هَذَا الحدِّ، بل عكفَ عَلَى تأليفِ كتابِهِ، تلبيةً لرغبة الغنيّ بالله في الردّ عَلَى ابن أبي حجلة التِّلمسانيّ {٧٢٥– ٧٧٦ هـ}[١٩] وكتابِهِ "ديوان الصَّبابة"، سالكاً فيه مسلكاً يَرقى فيه بالمحبَّةِ من درَكِ الغرائزِ إلى معارِجِ الارتقاءِ بالرّوحِ إلى سماءِ الولايةِ، فجعلَ مدارَ الكتابِ الحبَّ الإلهيَّ؛ لأنَّه الحبُّ الَّذي يُلحقُ المرءَ بفئةِ السُّعداء، ويُخرجُهُ من فئةِ الأشقياءِ.

وَعَلَى مَقْرُبةٍ من عصرِ ابن الخَطِيبِ، نَجدُ وزرَاءً وَكتَّاباً اتَّخذُوا التَّصَوُّفَ وَالزُّهدَ نَهجاً وَمسَلكاً، كَابنِ الجَيَّابِ وَالنُّميريّ، وَهُم مُحتفظونَ بِمَنَاصِبِهم، وَمنهم: أبو زيد الفَازازي وَأخوه في القرن السَّابعِ الهجري. وفي عصرِهِ نجدُ أبا جعفرٍ بن صفوَان، وغيرَهم مِمَّا سيقفُ عليهم البحث.

وَبعدُ، فإنَّ قولَ ابن الخَطِيبِ:(خَلَعْتُ لِبَاسَ الطَّمَاعَةِ، وَعاهَدْتُ اللهَ عَلَى رَفْضِ التَّسَبُّبِ، وَهَجْرِ التَّكَسُّبِ، وتَرَفَّعْتُ عَنْ مُزَاحَمَةِ الوُزَرَاءِ، وَلَبِسْتُ أَثْوَابَ الصُّوفيَّة ...إِذْ تَرَشَّفَ الدَّهْرُ بِالَّتِي، واسْتَنْزَفَ مَائِتَي ، وَقَصَّرَ مِنْ خَطْوِي...)[٢٠].

لا أدْرِي إنْ كَانَ هَذَا وَاقعاً قَائماً في حياتِهِ في فترةٍ ما، فَقَد كَانَ بِرغبةِ السُّلطانِ وَدَعوتِهِ، وَلَعلَّ تَقَدمَهُ بالسِّنِّ مِنَ الأسبَابِ المُهمَّة لِدُخولهِ مِنْ هَذَا البَابِ، وإنْ كَانَ قبلَ ذلك غيرَ هَذَا.

وَكَشيخِهِ أبي البَرَكَاتِ البلّفيقيّ[٢١] انْتَقَدَ ابنُ الخَطِيبِ أوهَامَ العوَام في المُتَصوِّفةِ، فَقَدْ ذكرَ في الإحَاطَة أنَّ العامَّة تَزَاحمُوا عَلَى نعشِ بعضِ الصَّالِحِينَ (وَتنَاوَلُوهُ تَمْزِيقاً عَلَى عَادَتِهِمْ مِنْ ارْتِكَابِ الفُحَّةِ البَارِدَةِ في مِسْلاَخِ حُسْنِ الظَّنِّ)[٢٢]، وفي ذلك ما يدلُّ عَلَى أنَّ تصوُّفهُ لم يكنْ ينتمي إلى طريقةِ العوامِ ومعتقداتِهم في شيوخِهم .

ومِنَ المُتَصَوِّفةِ الَّذينَ آثرُوا العزْلَةَ، فَالتفَّ حولَهم النَّاسُ، يَسْتَمعُونَ إليهم عمرُ بن عتيق الهاشمي[٢٣] خَطيبُ المَسْجدِ الأعظمِ وَإمامُهُ بغَرْنَاطَة، الَّذي صنفَ كتاباً في التَّصوُّف أسمَاهُ "مطَالع أنوار التَّحقيقِ والهداية"، وَعندمَا توفى احتَشَدَتْ جمُوعُ الغِرناطيّينَ حولَ نعشِهِ، وَتزَاحمُوا حولَ قبرِهِ، وَقَدْ قَالَ ابن الخَطِيبِ فيه(كَانَ رَحِمَهُ اللهُ عَلَى طَرِيقَةٍ مُثْلَى، حَيَاءً وَوَقَاراً وَصَمْتاً وَانْقِبَاضاً. .. كَلِفاً بِطَرِيقِ الصُّوفيَّة)[٢٤].

---

(١٩) شهاب الدين أحمد بن يحيى بن عبد الواحد بن أبي حجله، التلمساني المَوْلد، الدِّمشقي المنشأ، قال ابن الأحمر أنَّه أدركه، يُنْظَر: ابن الأحمر: إسماعيل بن يوسف بن محَمَّد: نَثِيرُ فَرَائِدِ الجُمَان في نظم فحُولِ الزَّمَان، تحقيق د.محَمَّد رضوان الدَّاية (دار الثقافة، بيروت،١٩٦٧م) ص ٢٢٨. وله ديوان الصَّبابة لابن حجلة، حققه د. مُحَمَّد زغلول سلام، ونشره بـ(منشأة المعارف بالإسكندرية عام١٩٨٧م.)

(٢٠) ابن الخَطِيبِ: نُفَاضَة الجِرَابِ في علالة الاغتراب، تحقيق د. أحمد مختار العبادي(دار الكتاب العربي، القاهرة،١٩٦٧م) وج٣ تحقيق فاغية السعدية(دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٨٩م) ٣/ ١٦٨.

(٢١) يُنْظَر أمثلة في نقد البلفيقي لبعض دعاوي الطرقيين في: ابن الخَطِيبِ: الإحَاطَة ٢/ ١٦٥ .

(٢٢) هَذَا القول في إشارة إلى جنازة أبي عبد الله السَّاحلي، يُنْظَر: المصدر السابق ٢٤١/٣ .

(٢٣) عليٌّ بن عليّ بن عتيق بن أحمد بن محمد بن عبد العزيز الهاشمي، من أهل غرناطة، يكنى أبا عليٍّ، ويُعْرَف بالقرشي، يُنْظَر: المصدر السابق ١٩٧/٤، والكَتِيْبَة، ص ٥١.

(٢٤) ابن الخَطِيبِ: الإحَاطَة ١٩٨/٤.

وَعمرُ الهاشميُّ هَذَا هُوَ مَن أعطَى خُرقة التَّصَوُّفِ لعليِّ بنِ المحروقِ[٢٥] الَّذِي لقَّبَهُ ابنُ الخَطِيبِ بشيخِ الفُقرَاءِ، وهُوَ من الَّذِين شَاركَوا في التَّأليفِ الصُّوفيِّ بِكتَابٍ سمَّاه: "نُكتُ النَّاجِي وَإشارَاتُ الرَّاجِي" قَال:(جَمَعْتُ فِيهِ بَعْضَ مَا صَدَرَ مِنْ أَوْرَادِي أيَّامَ تَجَرِيدِي وَاجْتِهَادِي ، مُحْتَوِياً عَلَى نَظْمٍ وَنَثْرٍ) وإلى هَذِهِ النُّكت يشير بِقَولِهِ :

فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مُنْهُنَّ أَسْرَارُ لاَ تَنْقَضِي وَلَها فِي اللَّفظ أَسْرَارُ

إِنْ رُمْتَ حَصْرَ مَعَانِيَهَا بِمَا سَمِعَتْ أُذْنَاكَ لَيْسَ لَهَـا بِالسَّـمْع إِحْصَـــــارُ[٢٦]

وَمنَ الشُّعَراء المُتَصوِّفةِ الَّذِين كَانَ سلُوكُهم يُمثِّلُ أدبَهم فَعَكسَ قضَايَا حيَاتِهم أبو عمرو مُحَمَّد بن عباد النَّفزيُّ[٢٧]، الَّذِي وَصفَهُ ابنُ الخَطِيبِ بأنَّهُ صُوفيٌّ مُتألِّهٌ، وَقالَ فيه:(كَانَ لَهُ حَظٌّ مِنَ العِلْمِ غَيْرُ مَنْزور، وَشَعْرٌ لاَ يَرْمِي بِسَهْمِهِ غَرَضَ زُورٍ)[٢٨]، وَهُوَ في شِعْرِهِ الصُّوفيِّ يَبثُّ شوقَهُ في قَالبٍ غزليٍّ، كقولِهِ:

يَا سَعْدُ سَاعِدْ مُسْتَهَامَاً فِيهِ لاَ ذُقْتَ الهُوَى ونَجَوْتَ مِنْ عُدْوَانِهِ

أَنَا فِي الغَرَامِ أَخُوكَ حَقاً وَالفَتَى لاَ يَكْتُمُ الأَسْرَارَ عَنْ إِخْوَانِـهِ[٢٩]

وَالوَاقعُ أنَّ نَزْعَةَ ابنِ الخَطِيبِ كَانتْ غيرَ بعيدةٍ عن نزعةِ التَّصَوُّفِ الطَّاغيةِ يومئذٍ في الأَنْدَلُسِ، وهي النَّزْعَةُ القَائِلَةُ بِوحْدَةِ الوُجُودِ، مع العِلمِ بوجودِ اختِلافٍ بيِّنٍ بينَ النُّقَّادِ حولَ هَذِهِ الظَّاهِرةِ، بما يخصُّ ابنَ الخَطِيبِ.

وَمِنْ مُتَصوِّفةِ العَصْرِ الأنصاريُّ السَّاحليُّ المَالقيُّ{٦٧٨– ٧٥٤هـ}[٣٠] الَّذي أسهمَ في إثْرَاءِ حَرَكةِ التَّصوُّف بِكتَابِهِ "بغية السَّالكِ في أشرفِ المَسَالكِ" مُتنَاولاً فيهِ مَرَاتبَ وَطُرقَ الصُّوفيَّةِ، وَشَارِحاً لأقوَالِهم ، الَّتي تَبْدُو – أحياناً– موشحةً بالغمُوضِ.

وَضِمْنُهم أيضًا، أبو عبد الله مُحَمَّدٌ بن جعفرٍ{٦٦٨–٧٥٠هـ}[٣١]، الَّذي رَحلَ إلى المَشرقِ، وَهنَاك لَقِيَ الشَّيخَ تَاجَ الدِّينِ ابنَ عطَاء، فَلازَمَهُ وَانتفعَ بهِ، فَكانَ له مؤلفاتٌ في التَّصوُّفِ أثَّرَتْ في هَذَا الميدانِ.

---

(٢٥) علي بن أحمد بن عثمان الأشعري، من أهل غَرْنَاطَة، يُكَنَّى أبا الحسن، ويُعْرَف بابن المحروق، ولد، كَمَا نقل ابن الخَطِيبِ من خطِّه سنة ٧٠٩هـ ولم يذكر سنة وفاته، يُنْظَر: ابن الخَطِيبِ: الإحَاطَة ٢٠١/٤.

(٢٦) ابن الخَطِيبِ: الإحَاطَة ٤/ ٢٠٤ .

(٢٧) مُحَمَّد بن يحيى بن إبراهيم بن مُحَمَّد بن مالك بن عبَّاد النفزي، صوفي متأله، يُنْظَر: ابن الخَطِيبِ: الكَتِيْبَة، ص٤٠، والمَقَّري: شهاب الدين أحمد بن محَمَّد، التلمساني: نفحُ الطِّيبِ في غصن الأَنْدَلُس الرَّطِيبِ، تحقيق د. إحسان عباس (دار صادر، بيروت، ٢٠٠٤ م) ٣٤١/٥ .

(٢٨) ابن الخَطِيبِ: الكَتِيْبَة، ص ٤٠ . ٤١

(٢٩) المصدر السابق ، ص ٤٢

(٣٠) مُحَمَّد بن إبراهيم الأنصاري السَّاحلي، يُكَنَّى أبا عبد الله، يُنْظَر: ابن الخَطِيبِ: الإحَاطَة ١٩١/٣.

(٣١) مُحَمَّد بن أحمد بن جعفر بن مُحَمَّد بن مروان بن الحسن بن زيد بن عامر بن نصر بن حقاف السَّلمي، يُكَنَّى أبا عبد الله، من أهل غَرْنَاطَة، ويُعْرَف بابن جعفر، يُنْظَر: المصدر السابق ٢٣٤/٣.

وَثمَّة كِتابَانِ كَانَ لهما دورٌ بارزٌ في إثراءِ النَّزعةِ الصُّوفيَّةِ في القرنِ الثَّامنِ الهجري وبدايَاتِ القرنِ التَّاسعِ الهجري، الكتَابُ الأوَّلُ لابنِ إسحَاق الرَّنديّ {ت٧٩٢ هـ}، وَعنوانُهُ "غيثُ المواهبِ العليَّة في شرح الحكم العطائيَّةِ"[٣٢] وَيعنى فيهِ بشرحِ حكمِ ابنِ عطَاءِ الله السَّكندريّ، وَقَد تميَّز أسلُوبُ الرَّنديّ ببلاغتِهِ، وَدقَّةِ الألفَاظِ، وَوضُوحِ المَعَانِي، وَيغلبُ عليها طَابعُ الذَّوقِ الصُّوفيّ، وإنْ كَانت لا تخلُو –أحياناً– مِنْ عمقِ النَّظرِ العَقْليّ.

أمَّا الكِتَابُ الثَّاني، فَيَنْتَمي إلى القرنِ التَّاسعِ الهجري، وهُوَ كتابُ "الذَّخائرُ والأعلاقُ في أدبِ النُّفُوس ومكارمِ الأخلاقِ" لأبي الحسنِ سلام بن عبد الله البَاهليّ الإشبيليّ{ت٨٣٩هـ} تنَاولَ فيهِ تَرجيحَ العقلِ وُحسنَ الصَّبرِ ، وَإيثَارَ الزُّهدِ وَالوَرَعِ ، وَالوَفَاءَ بِالعهدِ وَالأمانةِ[٣٣].

وَهناكَ، إلى جَانبِ الأسماء السَّابقةِ، غيرُهَا مِنْ أسمَاءِ الشُّعَراءِ المُتَصوِّفةِ، الَّذِين يَضِيقُ المَقَامُ عَنْ استقصَائهِم ، وَيَقْصرُ بَاعُ بَعضِهِم عنْ وَصْفِهِ بِالصُّوفيّ الشَّاعرِ .

ثانياً : بَعضُ مَضَامِينِ الشِّعرِ الصُّوفيّ عند الغرناطيين :

مِنْ خِلالِ الاطلاعِ الدَّقيقِ عَلَى مَوضُوعَاتِ عِلمِ التَّصَوُّفِ في المصَادِرِ الَّتِي تَنَاولتْ العصرَ الأندلسي في غَرْنَاطَة وَجَدْنا كَثيراً مِنهَا ضِمْنَ الشِّعرِ الغِرْنَاطِيّ، فَوقَفْنَا عَلَى ذِكرٍ للجوَاهرِ الرُّوحَانيَّةِ، مِنْ قَلْبٍ، وَرُوحٍ، وَنَفْسٍ، وَعَقلٍ، وَأحوَالِهَا، وَنصوصٍ في المَحَبَّة، وَالمَعْرِفةِ، وَمَا يتعلَّقُ بهمَا، وَأخرى للكَمَالِ، وَالجمَالِ، وَالاعْتِبَارِ بِالطَّبيعةِ، وَوَقَفْنَا عَلَى أمثِلَةٍ مِنَ التَّوبةِ، وَالخَوفِ، وِالرِّضَا، وَغيرهَا. وَكلُّهَا تُمثِّلُ قضَايَا وَموضُوعَاتِ علمِ التَّصَوُّفِ وَمُصطلحَاتِهِ المُتَدَاولةِ في العَصرِ الأنْدَلُسيّ وَالَّذِي سبَقَهُ.

وَخيرُ كتابٍ وَقَفْنَا عليه يُجْلِي لنا مَدَى التَّوافقَ بين الشِّعر وَالمبَادئ الصُّوفيَّة هُوَ كتَابُ ابنِ الخَطِيبِ "رَوْضَةُ التَّعْرِيفِ بِالحُبِّ الشَّرِيفِ" لذلكَ سَنَقِفُ عَلَى أهمِّ مَضَامينِ شِعْرِ التَّصَوُّفِ بِالمقَارنةِ معهُ، فَضلاً عَنْ مَصَادِرِ المُصلحَات الصُّوفيَّةِ ، وغيرها.

١ . الجَوَاهرُ النَّفسِيَّة وَأحوَالُهَا : تَنَاولَ هَذِهِ الجوَاهرَ عددٌ كبيرٌ مِنْ شعرَاءِ عَصرِ بَنِي الأحْمَرِ، وَهِي مَجموعَاتٌ مِنْ(قَلبٍ، وَرُوحٍ، وَنَفْسٍ، وَعَقْلٍ هُوَ الملِكُ، وَهُوَ السِّرُّ الَّذِي تَنَزَّلَ بِأمرِ الله سُبحَانهُ)[٣٤]، قَالَ ابن الخَطِيبِ:

تَعَدَّدَتِ الأَسْمَاءُ وَاتَّحَدَ الْمَعْنَى وَأَصْبَحَ فَرْداً مَا مَرَرَتُ بِهِ مَثْنَى

وَعَادَتْ لِعَيْنِ الْجَمْعِ وَهْيَ كَثِيرَةٌ مَحَا كُلَّ فَرْقٍ مُجْتَلَى وَجْهِكَ الأَسْنَى[٣٥]

هَذِهِ الجوَاهرُ تَعُودُ إلى النَّفسِ الَّتِي تُشبِهُ أرضَ الشَّجرَةِ، وَرأى أبو جَعفرٍ بن الزّيَاتِ أنَّهَا مَركزُ الذَّات، وَيُمكنُ أنْ تَبلغَ الكَمَالَ إذا تخلَّصَتْ منْ عيوبِهَا :

عُلُوٌّ وَسُفْلٌ وَمِنْ هَذَا وَذَاكَ مَعاً دَوْرٌ عَلَى نُقْطَةِ الإِشْرَافِ مَنْصُوبُ

(٣٢) نشر هَذَا الكتاب بتحقيق د. عبد الحليم محمود (دار الكتب الحديثة بمصر، ١٩٧٠م)

(٣٣) يُنْظَر: المقَّري: النَّفح ٣٣٣/٤.

(٣٤) ابن الخَطِيبِ: رَوْضَةُ التَّعْرِيفِ، ص ١١٥ .

(٣٥) ابن الخَطِيبِ: المصدر السابق، ص ١١٦.

وَمَرْكَزُ النَّفس مِنْهُ مِيمُ مَرْكَزِهِ إِنْ صَحَّ لِلغَرَضِ الطِّينِيّ مَرْغُوبُ

وَإِنْ تَنَاءَتْ مَسَاوِيهَا فَحَيِّزُهَا أَوْجُ الْكَمَالِ وَتَحْتَ الأَوْجِ تَقْلِيبُ [٣٦]

ويرى أَهْلُ التَّصَوُّفِ الخُلُقِي في اسْتِعْمَالِ النَّفسِ (الأَصْلَ الجَامِعَ لِلصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ مِنْ الإِنْسَانِ)[٣٧]، ولكنَّها مَحكُومةٌ بِقوَّةِ إيمَانِ الإِنْسَانِ وَإِرَادتِهِ، فِهِي تَقُودُهُ إلى المَهَالكِ إذا أهملَهَا، وإلى الخيرِ إذا كلَّفها ما يُصلحُها وَيقوِّمُ اعوِجَاجَهَا، وَفِي هَذَا المَعنى يَقُولُ ابنُ الجَيَّابِ :

هِيَ النَّفس إِنْ أَنْتَ سَامَحْتَهَا رَمَتْ بِكَ أَقْصَى مَهَاوِي الْخَدِيعَهْ

وَإِنْ أَنْتَ جَشَّمْتَهَا خُطَّةً تُنَافِي رِضَاهَا تَجِدْهَا مُطِيعَهْ[٣٨]

أمَّا القَلبُ فهُوَ مَوطِنُ العوَاطِفِ الإنسَانيَّة، عَلَى اختلافِ نزعَاتِهَا، وَهُوَ في استعمَالِ شعرَاءِ التَّصَوُّفِ وَاصطلاحَاتِهِم لَطِيفةٌ رُوحَانيَّةٌ ربَانيَّةٌ ، يَقُولُ ابن الجَيَّابِ :

أَلاَ أَيُّهَا الْقَلْبُ الْمُعَنَّى صَبَابَةً بِرَبْعٍ دَرِيسٍ مُقْفِرِ الْعَرَصَاتِ

تُسَائِلُ عَنْ سُعْدَى وَسَلْمَى سَفَاهَةً وَقَد مَرَّ عَنْكَ الْعُمْرُ فِي الغَفَلاَتِ

تَنَهْ فَصُبْحُ الشَّيْبِ قَدْ لاحَ مُنْذِراً أَفِقْ فَإِلَى كَمْ أَنْتَ فِي غَمَرَاتِ[٣٩]

وَعندَهُم السِّرُّ كِنَايةُ عَن العَقلِ، وَالعقلُ(جَوهَرٌ بَسِيطٌ رُوحَانيٌّ يُحِيطُ بِالأشيَاءِ كلِّهَا إحَاطةً رُوحَانيَّةً)[٤٠]. قَالَ ابنُ الخَطِيبِ أيضاً:(وَمَتى ذَكَرَ أَهْلُ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ السِّرَّ كَنُّوا بِهِ عَنْ الْعَقْلِ)[٤١] وقال ابنُ عبَّادٍ النَّفزيّ في المَعْنَى ذاته:

سِرِّي يُسِرُّ إِلَيَّ أَنَّكَ تَارِكِي نَفْسِي فِدَاكَ لِلُطْفِكَ الْمُتَدَارَكِ [٤٢]

---

(٣٦) ابن عزيم: مختارات ابن عزيم، ص ٨٩ .

(٣٧) ابن الخَطِيبِ: رَوْضَةُ التَّعْرِيفِ، ص ١٣٤ .

(٣٨) ابن الخَطِيبِ: الإحَاطَة ١٤٣/٤ .

(٣٩) ابن الجَيَّابِ : دِيوَانُه ، ص ١٦

(٤٠) ابن الخَطِيبِ: رَوْضَةُ التَّعْرِيفِ، ص ١١٣ .

(٤١) ابن الخَطِيبِ: رَوْضَةُ التَّعْرِيفِ ، ص ١٣١ .

(٤٢) ابن الخَطِيبِ: الكَتِيْبَة، ص ٤٤ .

وَالعَقلُ يَكُونُ مَصْدراً لِلهدَايةِ، إذا أَفَادَ منهُ الإنسَانُ، تَبْصرةً وَنُوراً، وَإلاَّ فهُوَ عرضةٌ لِلوقُوعِ في شِبَاكِ الهُوَى وَفي الزَّلِلِ، وهُوَ ما عبَّرَ عنه ابنُ الزّياتِ بِقَولِهِ :

مَا لَمْ يُفِدْكَ الْعَقْلُ تَبْصِرَةً بِهِ أَوْحَى إِلَيْكَ وَيُورِثُ اسْتِمْنَاحَا

فَالْعَقْلُ فِي حُكْمِ الْهُوَى وَلِذَاكَ لَمْ يَنْفُضْ بِمَيْدَانِ النَّفَاذِ جَنَاحَا

فَانْظُرْ بِعَقْلِكَ هَلْ تَرَى مِنْ كَائِنٍ إِلاَّ وَيُفْضَحُ بِالْهُدَى إِفْصَاحَا (٤٣)

٢. المَحَبَّةُ وَأَسْبَابُهَا: المَحبَّةُ آيةُ الاختصَاصِ وَنَتِيجةُ الاصْطِفَاءِ وَالإخْلاصِ، والمَحَبَّة تَّتصلُ بِالمعرفةِ، كَمَا تَّتصِلُ بِالمقَامَاتِ الصُّوفيَّة(٤٤)، وَهِي مِنْ أصُولِ موضُوعَاتِ علمِ التَّصَوُّفِ، وَتُؤخذُ من لفظِ "المَحَبَّة" مُشْتَقَاتٌ وَمرادفَاتٌ كَثِيرةٌ ، كَالحبِّ، وَالصَّبابة، وَالشَّوقِ، وَالعشقِ، وَالكلَفِ، وَالشَّغَفِ، وَالهُيَام، وَالوَلَهِ، وَغيرِهَا .. وَقَد جَرَى معظمُها عَلَى ألسنةِ الشُّعَرَاءِ فِي شعرِ التَّصَوُّفِ وَالمدَائحِ النَّبويَّةِ وَمَا يتَّصلُ بهمَا، وَفِي ذلك يُخَاطبُ الشَّاعرُ اللهَ وَالرَّسُولَ ﷺ بمَا يُخَاطبُ به المَحْبُوبَ مِنْ عبَاراتٍ وَمَعَانٍ. قَالَ أحدُ الصُّوفيَّةِ:

هَلْ تَعْلَمُونَ مَصَارعَ العُشَّاقِ عِنْدَ الْوَدَاعِ بِلَوْعَةِ الأَشْوَاقِ

مَا لِلْمُحِبِّ مِنَ الْمَنُونِ وِقَايَةٌ إِنْ لَمْ يَجُدْ مَحْبُوبُهُ بِتَلاقِ (٤٥)

وَيَبقَى "الحبُّ الإلهيُّ"، مِنْ أبرزِ المَضَامينِ في الشِّعرِ الصُّوفيّ، وَقَدْ عبَّرَ شعرَاءُ غَرْنَاطَة عنهُ بألفاظِ التَّغزُّلِ الَّتِي تَتخللُهَا مُصطَلَحَاتٌ وَإشَارَاتٌ صُوفيَّةٌ، تُشيرُ إلى مَقصدِها، وَتُبْعِدُ قَارئَهَا عن التَّغزُّلِ المُباشرِ الخَالصِ، يقولُ ابن برشيت الغِرْنَاطِيّ(٤٦) :

الْقَلْبُ يَعْشَقُ وَالْمَدَامِعُ تَنْطِقُ بَرَحَ الخَفَاءُ فَكُلُّ عُضْوٍ يَنْطِقُ

إِنْ كُنْتُ أَكْتُمُ مَا أُجِنُّ مِنَ الْجَوَى فَشُحُوبُ لَوْنِي فِي الْغَرَامِ مُصَدّقُ

بِالذَّوْقِ لاَ بِالعِلْمِ يُدْرَكُ سِرُّنَا سِرٌّ بِمَكْنُونِ الْكِتَابِ مُصَدّق(٤٧)

---

(٤٣) ابن عزيم: مختارات ابن عزيم، ص ٨٨ .

(٤٤) يُنْظَر علاقة المَحَبَّة بالمعرفة والمقامات الصُّوفيَّة في: ابن الخَطِيبِ: **رَوْضَةُ التَّعْرِيفِ**، من ص ٢٤٦إلى ٤٠٥، وأفرد فصلاً تحدث فيه عَلَى أنَّ الوجود كلَّه أصلُهُ المحبَّة، ص ٣٥٦.

(٤٥) ابن الخَطِيبِ: **رَوْضَةُ التَّعْرِيفِ** ، ص ٣٤١ .

(٤٦) عبد العزيز بن أحمد بن برشيت الغرناطي، يمتُّ إلى المتصوفة، يُنْظَر: ابن الخَطِيبِ: **الكَتِيْبَة**، ص ٢٩٣.

(٤٧) ابن الخَطِيبِ: **الكَتِيْبَة**، ص ٢٩٤ – ٢٩٥ .

فَالحبُّ هنا ليسَ كَأغرَاضِ الغَزَلِ البشريّ؛ لأنَّهُ يُدركُ بالذَّوقِ، كَمَا يُفهم مِنَ البيتينِ الأخيرينِ. أمَّا لومُ النَّفسِ عَلَى دعوى المَحَبَّةِ مع نسيانِ المحبوبِ والتَّقصيرِ في حقِّهِ، فهُوَ من المَعَاني الَّتِي تُطرقُ كثيراً في الشِّعر الصُّوفيّ، وفي هَذَا المعنى يقولُ ابن الجَيَّابِ :

تَدَّعِي الْحُبَّ ثُمَّ تَنْسَى الْحَبِيبَا ... لَسْتَ فِيمَا ادَّعَيْتَ إلاَّ كَذُوبَا

إنَّمَا الْحُبُّ أَخْذَةٌ تَمْلِكُ القَلْـ ... ـبَ جَمِيعاً فَلَيْسَ تُبْقِي نَصِيبَا (٤٨)

وَنِجدُ المَعنَى نفسَهُ عندَ أحمد بنِ صفوَان، وَقَدْ صَاغَهُ في أسلُوبٍ أرفع، فَيَقُولُ :

لَوْ صَحَّ حُبُّكَ مَا فَقَدتَهُمُ وَلاَ ... سَارَتْ بِهِمْ عَنْ حُبِّكَ الأَظْعَانُ

تَشْتَاقُهُمْ وَحَشَاكَ هَالَةُ بَدْرِهِمْ ... وَالسِّرُّ مِنْكَ لِحِلّهِمْ مَيْدَانُ

مَا هَكَذَا إِخْوَانُ أَرْبَابِ الْهُوَى ... نَسَخَ الْغَرَامَ بِقَلْبِكَ السُّلْوَانُ(٤٩)

وَالمَحَبَّة رِحلةٌ شاقةٌ وبحرُ مليءٌ بِالمخَاطرِ وَالصِّعابِ، قد تؤدِّي بالإنسانِ إلى ما يرُومُهُ فيقتطفُ ثمارَهَا، أو تقودُهُ إلى المحرقةِ فَتُحرقُهُ نارُهَا، يقولُ ابن الخَطِيْبِ:(المَحَبَّة بَحرٌ بَعِيدُ الشَّطِ، وَخَطٌ والفَنَاءُ مُنْتَهَى الخَط) وَ(المَحَبَّةُ مَهوىً بَعِيدٌ، وَمَجَالُ وَعْدٍ ووَعيد، مِرْجَلٌ يَغْلي ، ثُمَّ خَيَالك يَستَوْلي)(٥٠)، فَصَاغ أثرَ الحبِّ وَمَا نَشَأ عنُه مِنْ نَارٍ بِقَولِهِ:

والْحُبُّ حَرَّكَهُمْ لِكُلِّ جِدَالِ ... وَالْحُبُّ أَقْحَمَهُمْ عَلَى الأَهْوَالِ

والحُبُّ قَاطَعَ بَيْنَهُمْ وَأَضَلَّهُمْ ... عَنْ نَيْلِ ما رامُوهُ كُلَّ ضلالِ

وَالُحبُّ أَنشَأَ فِيهِمُ عصَبِيَّةً ... بِالْقِيلِ أَضْرَمَ نَارَهَا وَالْقَالِ

ولأنَّ الرِّحلةَ شاقَّةٌ وَطَويلةٌ، فَإنَّ بعضَ المُسَافِرينَ لا بدَّ أنْ يَسقطَ في أثنَائهَا، والَّذِي يَصِلُ منهم قليلٌ جداً، يَقولُ ابنُ الخَطِيْبِ:

وَالْوَاصِلُونَ هُمُ الْقَليلُ وَكَيْفَ لاَ ... قَفْرٌ وَمَسْبَعَةٌ وَلَيْلٌ أَلْيلُ (٥١)

---

(٤٨) ابن الجَيَّابِ: **دِيوَانُه**، ص ٥ .

(٤٩) ابن الخَطِيبِ: الإحَاطَة ٢٢٣/١. وفي المعنى نفسه نجد نصَّاً لابن خَاتِمَةَ في دِيوَانه، ابن خاتمة، أحمد بن علي، الأنصاري، تحقيق د. محَمَّد رضوان الداية(منشورات دار الحكمة: دمشق،١٩٧٢م) ص.١١

(٥٠) ابن الخَطِيبِ: رَوْضَةُ التَّعْرِيفِ، ص٣٧٢– ٣٧٣ .

(٥١) ابن الخَطِيبِ: دِيوَانُه، ص ٥١٠– ٥١١.

وَعندَ شعرَاءِ بَنِي الأحْمَرِ نَجِدُ تفاوتاً في التَّعبيرِ عن المَحَبَّةِ، عمقاً وَسَطْحيَّةً، وقوَّةً وَضعفاً، فَقَدْ يُعجبكَ الأسلُوبُ وَدلالتُهُ، وَلكنْ إذا تَعَمَّقتَ في النَّصِّ وَجدتَهُ خَالياً مِنْ نُورِ الرُّوحِ وَحرَارةِ العَاطِفةِ، كَقَولِ ابنِ الخَطِيبِ:

لاَ شُكْرَ لِي إنْ كُنْتُ قَدْ أَحْبَبْتُكُم أَوْ أَنَّني اسْتَوْلَى عَلَيَّ هُوَاكُمُ

طَوْعاَ وَكَرْهاً مَا تَرَوْنَ فإنّني طُفْتُ الْوجُودَ فَمَا وَجَدْتُ سِواكُم[٥٢]

فَقَولُ الشَّاعرِ جِئتُكُم طَائعاً أو مُكْرَهاً؛ لأنَّني لَمْ أجِد غيرَكُم، وَهُوَ مَعنى بعيدٌ عن المَحَبَّةِ الحقَّةِ، وَعنْ مَقْصدِ الشَّاعرِ وهُوَ أنَّهُ أحبَّ اللهَ حقَّ المَحَبَّةِ، بَعدَ أنْ عَرَفهُ حقَّ المَعرِفَةِ؛ لأنَّ المَحَبَّة نَتِيجةٌ ضَروريَّةٌ لِمثلِ تلك المَعرفةِ، وَمِثْلُ هَذَا قولُ أحمد بن صفوَان :

لاَ يَشْتَكِي أَلَمَ البَعادِ مُتَيَّمُ أَحْبَابُهُ فِي قَلْبِهِ سُكَّانُ [٥٣]

فَحضُورُ مَحْبوبِهِ الدَّائمِ في نفسِه، حتَّى لَكأنَّه لَمْ يُفَارقْهُ، يُوَلِّدُ حَالةً مِنَ السَّعَادةِ تَعْملُ عملهَا في نفسِ هَذَا المُتيمِ، وَكَأنَّهُ لمْ يَشْتَكِ ألمَ البُعادِ وَالشَّكوى. وَمِنَ الجيِّدِ الَّذي قِيلَ في المَحَبَّةِ قولُ ابن عبَّادٍ النَّفزيّ :

مَنْ سَامَ قَلْبِي فِي هُوَاهُ سَلْوَةً قَدْ سَامَهُ مَا لَيْسَ فِي إمْكَانِهِ [٥٤]

فَالمحبَّةُ الَّتي تتغلغلُ إلى الأعماقِ يستحيلُ تحويلها بوشايةِ واشٍ أو تسريةِ ودودٍ. أمَّا أسبابُ المَحَبَّةِ، المُبَاشرةُ وغيرُ المُبَاشرةِ، فَمنهَا: المعرفةُ وَالجَمَالُ وَالكَمَالُ وَالقُرْبُ وَالشُّهُودُ وَالاعْتِبَارُ وغيرها.

والمَعرفةُ هي (الإحاطةُ بعينِ الحقيقةِ بالحقيقةِ، ومعرفةُ الحقّ بالنُّعوتِ والصِّفَاتِ)[٥٥] وهي الغَايةُ الَّتِي يسعى إليها المتصوِّفُ وَيحرصُ عَلَى تحقيقها، وَعند القشيريّ المَعرفةُ صِفَةُ مَنْ عرفَ الحقَّ سبحَانهُ بأسمَائهِ وصِفَاتهِ[٥٦]، يقول ابنُ الخَطِيبِ:

وَالْكَوْنُ إِشْرَاكُ نُفُوسِ الْوَرَى طُوبَى لِنَفْسٍ حُرَّةٍ فَازَت

إِنْ لَمْ تَحُزْ مَعْرِفَةَ اللهِ قَدْ أَوْرَطَهَا الشَّيءُ الَّذِي حَازَت[٥٧]

أما المُشَاهدةُ[٥٨] الرُّوحيَّةُ لجلال اللهِ فهي مُنْتَهى الطَّلبِ في معرفةِ الله، حَيْثُ يتَّصلُ المخلُوقُ بالخالقِ، وفيهاَ يقولُ ابنُ الخَطِيبِ:

([٥٢]) المصدر السابق، ص ٥٧٤ .

([٥٣]) ابن الخَطِيبِ: الإحَاطَة ٢٢٣/١ .

([٥٤]) ابن الخَطِيبِ: الكَتِيْبَة، ص ٤٢ .

([٥٥]) الكاشاني: معجم اصطلاحات الصُّوفية، ص٣٦٣،في ص١٠٩إلى أنَّ منتهى المعرفة هي الحضرة الواحدية.

([٥٦]) القشيري: الرِّسالة القشيريَّة، ص ٣١٠.

([٥٧]) ابن الخَطِيبِ: دِيوَانُه، ص ٤٥٤ .

([٥٨]) المشاهدة شهُوَد الذَّات بارتفاع الحجاب مطلقاً ، يُنْظَر: الكاشاني: معجم اصطلاحات الصُّوفية، ص٣٤٧.

إِذَا لَمْ أُشَاهِدْ مِنْكَ قَبْلَ مَنِيَّتِي نِهَايَةَ آمَالِي وغايَةَ غَايَاتِي

فَحُسْنُ عَزَائِي حيلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَقُرَّةُ عَيْنِي لَم تُجَلَّ بِمِرْآتِي

شُهُودُكَ أَمْنٌ مِنْ عُدَاةِ خَوَاطِرِي وَقُرْبُكَ حِرْزٌ مِنْ تَوَقُّعِ آفَاتِي[٥٩]

وَالمعرفةُ أُمنيةُ الصُّوفيّ وَغَايتُهُ، وَالمُشَاهدةُ هِي سبيلُها الأمثلُ؛ لذلك يطُولُ الوقُوفُ أمَام بابِ الله، وهَذَا يَحْتَاجُ إلى صَبرٍ وَتَنْقيةٍ لِلنَّفسِ مِنْ الآفَاتِ الإنسَانيَّةِ [٦٠]، يَقُولُ ابنُ خَاتِمَةَ :

عَبْدٌ فَقِيْرٌ بِبَابِ الْجُودِ مُنْكَسِرُ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُوافِي حِينَ يَنْضَغْطُ

وَمَنْ يَكُنْ بِالَّذِي يَهْوَاهُ مُجْتَمِعاً فَمَا يُبَالِي أَقَامَ الْحيُّ أَمْ شَحَطُوا [٦١]

وَهَذَا الوقُوفُ المُنْكَسرُ يَطُولُ ببَابِ الله، حتَّى تَبْدُو لَمْحَةُ الرِّضَا، أو تَنْتَهِي حيَاةُ الصُّوفيّ، يَقولُ ابنُ الزَّيات:

مَا لِي بِبَابِ غَيْرِ بَابِكَ مَوْقِفُ لاَ، لاَ، ولاَ لِي عَنْ فِنَائِكَ مَصْرفُ

هَذَا مَقَامِي مَا حَيِيتُ فَإِنْ أَمُتْ فَالذُّلُّ مَأْوىً وَالضَّرَاعَةُ مَأْلَفُ[٦٢]

وَاستجَابةً لِقولِهِ تَعَالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُم أَفَلاَ تُبْصِرُون ﴾(الذَّاريات، آية: ٢١)، فِسرُّ الوجُودِ، وَمُعجزةُ الخَلقِ كَامنةٌ في ذَاتِ الإنسَانِ كَأوضحِ ما تكونُ؛ لذلك يَجبُ عَلَى الإنسَانِ الرُّجوعُ إلى ذَاتِهِ، يقولُ ابنُ صفوان :

يَا لاَمِحاً سِرَّ الوُجُودِ بِعَيْنِهِ السِّرُ فِيكَ بِأَسْرِهِ وَالشَّانُ

ارْجَعْ لِذَاتِكَ إِنْ أَرَدْتَ تَنَزُّهاً فِيهَا لِعَيْنيْ ذِي الحِجَا بُسْتانُ [٦٣]

ويَرَى بعضُ المُتَصوِّفةِ أنَّ السَّببَ فِي المَحَبَّة هُوَ التمَاحُ سرِّ الكَمَالِ والجمالِ، وَأنَّ الكَمَالَ هُوَ مظهرُ الجمَالِ، وَقَدْ فصَّلَ ابنُ الخَطِيبِ القولَ فيهمَا ضِمنَ مَبَاحِثِ أسبَابِ المَحَبَّة[٦٤]، وَوَردتْ مِنْ ذلك إشَاراتٌ في أشعَارِ مُتصوِّفةِ الأنْدَلُسِ، نَذكرُ منهَا مَا وَردتْ فيهِ اللَّفظتَانِ بعينهما، فَمنْ ذلك قولُ ابن عبَّادٍ النَّفزيّ:

يَا مُنْيَةَ الْقَلْبِ الَّذِي بِجَمَالِهِ فَتَنَ الوَرَى مِنْ فَاتِكٍ أَوْ نَاسِكِ

(٥٩) ابن الخَطِيبِ: دِيوَانُه، ص ١٧٨ .

(٦٠) يُنْظَر: ابن الخَطِيبِ: رَوْضَةُ التَّعْرِيفِ، ص ٢٤٧ .

(٦١) ابن خَاتِمَةَ: دِيوَانُه، ص ٢١ .

(٦٢) ابن عزيم: مختارات ابن عزيم، ص ٨٩ .

(٦٣) ابن الخَطِيبِ: الإحَاطَة ٢٢٤/١ .

(٦٤) يُنْظَر: ابن الخَطِيبِ: رَوْضَةُ التَّعْرِيفِ، ص ٢٨٨ وما بعدها .

أَأَتِيهُ دُونَكَ أَوْ أَحَارُ وَفِي سَنَا ذَاكَ الْجَمَالِ جَلاَ الظَّلاَمِ الحَالِكِ [٦٥]

وَسرُّا المَحَبَّةِ هما الجمالُ والكَمَالُ، في كلِّ عناصر الوجود ؛ لذلك طلبَهما الشَّاعرُ الصُّوفيُّ في الطَّبيعةِ، وفي الإنسان، ظاهراً أو باطناً، حسّيّاً أو معنويّاً، فامتزجَ في ذلك وصفُ الطَّبيعة بالتَّغزُّل، وكانت الغايةُ هي الاعتبارُ .

والاعْتبَارُ هُوَ التَّفكُّرُ وَالنَّظرُ في إبداعِ الله وملكوتِه، وصولاً إلى مَعْرفَتِهِ، مِن خِلالِ بَدِيعِ صنعِهِ، وفي القرآنِ الكريمِ آياتٌ كثيرةٌ تَحثُّ عليه[٦٦]، أمَّا في اللُّغة: فَاعتبرْ بِالشَّيءِ: أي اتعظْ بِهِ، وَاعجبْ منهُ، وَتَدبَّرْ فيه[٦٧].

وَأبرزُ شعرَاءِ غَرْنَاطَة، كَمَا أشرنا سَابقاً، في هَذَا المجال، هُوَ ابن خَاتِمَةَ الأنصاري، فَقَدْ وقفَ منْ خلال أشعَارِهِ الدِّينيَّةِ بين يدي الطَّبيعةِ وَمجَاليهَا المتنوِّعةِ وِقْفَةَ اعتِبَارٍ وتأمُّلٍ في الكونِ لإدرَاكِ تجليَاتِ الخَالقِ، يقولُ :

الأَرْضُ بَيْنَ مُدَبّجٍ وَمُحلَّلِ وَالرَّوْضُ بَيْنَ مُتَوَّجٍ وَمُكَلَّلِ

وَالزَّهْرُ بَيْنَ مُوَرَّدٍ وَمُوَرَّسٍ وَالنَّشْرُ بَيْنَ مُمَسَّكٍ وَمُصَنْدَلِ

وَالْمَاءُ قَدْ صَقَلَ النَّسِيمُ فِرَنْدَهُ فَتَوشَّحَتْ مِنْهُ الرِّياضُ بِمُنْصلِ

إلى أن يقولَ، بعد أنْ يعرضَ مظَاهرَ الطَّبيعيَّةِ عَرْضاً مُفصَّلاً:

لُطَفٌ مِنَ الإِحْسَانِ أَعْجَزَت الْوَرَى أَوْصَافُهَا سُبْحَانَ مُبْدِعِهَا العَلِي![٦٨]

فَالطَّبيعةُ مَهرجَانٌ مُتَنوّعُ الألوَانِ، مُنْسجمُ المكوّناتِ، مُتَكَاملُ العنَاصرِ، وَكأنَّه يَقْتَربُ مِنَ الكَمَالِ، وَأصْحَابُ الأبصَارِ النّيّرةِ لا يَخفَى عليهم هَذَا الحُسنُ، وَالَّذي لا يَتَفَطَّنُ للحُسن الخفيّ لا يمكنُهُ مشَاهدةُ الحُسنِ الوَاضحِ الجليّ، فَكلاهمَا خَفِيانِ جليَّانِ في وقتٍ وَاحدٍ؛ لأنَّ الله جميلٌ يُحبُّ الجمَالَ. فكَانَ البيتُ الأوَّلُ رَابطاً بين الصَّنعةِ وَالبديع وَسببَ إبدَاعِهَا، وَهُوَ ما يوضّحُ هَدَفَ الشَّاعرِ مِنْ وَصْفِ الطَّبيعةِ.

وَجمَالُ الطَّبيعةِ عندَ المُتَصوّفة انعكَاسٌ لجمَالِ الذَّاتِ الإلهيَّةِ، فَالكونُ كَانَ ظُلمةً ، فَأنارَهَا اللهُ بنورِهِ، يقولُ ابن خَاتِمَةَ، موضِحاً الصِّلةَ بين جمالِ الطَّبيعةِ وجمالِ الخالق:

وَادٍ بِهِ نَفَضَ الرَّبيعُ عيَابَهُ وَأرَى فُنُونَ فُتُونِهِ وَضريبَهَا

١

أَضْفَى عَلَيْهِ النَّوْرُ مِنْ أَثْوابِهِ خِلَعاً تُهذِّبُ نَشْرَها تَهْذِيبَهَا

([٦٥]) ابن الخَطِيبِ: الكَتِيْبَة، ص ٤٤ .

([٦٦]) يُنْظَر: سورة الحشر، آية٢، وسورة يوسف آية١١، وسورة آل عمران آية ١٣، وغيرها .

([٦٧]) يُنْظَر: الزُّبيدي: تاج العروس ، مادة اللسان، ومادة: عبرَ .

([٦٨]) ابن خَاتِمَةَ: دِيوَانُه، ص ٢٢ . ٢٥ .

فِي عَاتِقَيْهِ مِنَ المِيَاهِ صَوَارِمٌ يُبْدِي النَّسِيمُ بِمَتْنِهَا تَشْطِيبَهَا

فَوَرَاءَ هَذَا الحُسْنِ حُسْنٌ قَدْ غَدَا مَطْلُوبَ نَفْسِكَ لَوْ دَرَتْ مَطْلُوبَهَا (٦٩)

٣. الشُّكْرُ: هُوَ(النَّناءُ عَلَى المنعمِ باللِّسانِ وَالجوارحِ)[٧٠]، وهُوَ(التَّلذُّذُ بثنائِهِ عَلَى ما لم يستوجبْهُ من عطائِهِ)[٧١]وهُوَ أحدُ المقاماتِ الصُّوفيَّة المتدرّجةِ، وهَذَا المقامُ هُوَ (السُّرُورُ بِالنِّعَمِ ، وَحُسْنُ اسْتِعْمَالِهَا، وَالثَّناءُ عَلَى مُنِيلِ نَوَالِهَا)[٧٢]، ولا يقتصُر أداؤه عَلَى ألفاظٍ بعينِهَا، أو جِنْسٍ مِنْ الكَائنَات دونَ سواه، يَقُولُ ابن خَاتِمَةَ :

سُبْحَانَ مَنْ صَدَعَ الْجَمِيعُ بِحَمْدِهِ وَبِشُكْرِهِ مِنْ نَاطِقٍ أَوْ أَخْرَسِ[٧٣]

٤ـ القُرْبُ والبعد: إنَّ القُرْبَ وَالبُعْدَ مِنَ الظَّوَاهِرِ الَّتِي تَتَكَرَّرُ عند الصُّوفيَّةِ في أشعارِهم، و(أَوَّلُ رُتبةٍ في القُربِ هي القُربُ مِنْ طَاعتِهِ، وَالالتزَامُ فِي جَميعِ الأَوْقَات بعبَادتِهِ ، وَأَمَّا البُعدُ فهُوَ التَّدنسُ بِمُخَالفَتِهِ وَالتَّجَافِي عَنْ طَاعتهِ)[٧٤]، وَقَد اعتبرَ ابنُ الخَطِيبِ "القُربَ" مرْحَلةً مُتَقدِّمةً في رِحلةِ الصُّوفيّ إلى غَايتِهِ، فَتَبدأُ بِالمَعْرَفَةِ، ثُمَّ القُربِ، ثُمَّ الشُّهُوَدِ، ثُمَّ الغَايَةِ عَلَى العلمِ مِنْ عدمِ الوضُوحِ فِي مَفهُوَمي القُربِ وَالبُعد في بعضِ الأشْعَارِ، إذ لا وجُودَ لِلقُربِ وَالبُعدِ المَكَانِي في العَلاقةِ بينَ العبدِ وَرَبِّهِ، يقولُ ابن الخَطِيبِ :

إِنَّ قُرْبِي إِلَيْهِ غَايَةُ بُعْدِي فَأَرَانِي مِنْهُ بَعِيداً قَرِيبَا [٧٥]

وابنُ صفوان يكرّرُ المعنى نفسَه إذ يقولُ :

رَأَيْتُكَ يُدْنِيني إِلَيْكَ تَبَاعُدِي فَأَبْعَدْتُ نَفْسِي وَابْتِغَائِي مِنَ القُرْبِ

فَقُرْبِي بِهِ قُرْبٌ بِغَيْرِ تَبَاعَدٍ وَقُرْبِيَ فِي بُعْدِي فَلاَ شَيْءَ مِنْ قُرْبِي[٧٦]

ثالثاً : لغةُ الشِّعرِ الصُّوفِيّ في عند شعراء غرناطة:

تميَّزَ بَعضُ الصُّوفيَّةِ بلغةٍ تقومُ عَلَى استخدَامِ مُصطلحَاتٍ وَإِشَارَاتٍ صُوفيَّةٍ خَاصَّةٍ عصيَّةٍ عَلَى غيرِهم ، إلاَّ إذا كَانَ مثلَهُم أو خَبِيراً بِمُصطلحَاتِهم وَعلمِهم وَأدبِهم، كَمَا تميَّزُوا بطُرقِ تراكيب تعتمدُ عَلَى تتَالِي الألفَاظِ بِصُورةٍ غيرِ مُعْتَادةٍ في اللُّغةِ العَادِيةِ، فَضْلاً عَنِ التِّكرَارِ، وَهَذَا مَا يؤدِّي إلى عَدمِ الوضُوحِ في بعضِ الأحيَانِ.

([٦٩])([٦٩]) ابن خَاتِمَةَ: دِيوَانُه، ص ٢٦ . ٢٧ .

([٧٠]) الكاشاني: معجم اصطلاحات الصُّوفيَّة، ص ٢٥١.

([٧١]) القشيري: الرِّسالة القشيريَّة، ص ١٧٦.

([٧٢]) ابن الخَطِيبِ: رَوْضَةُ التَّعْرِيفِ ، ص ٤١٢ .

([٧٣]) ابن خَاتِمَةَ: دِيوَانُه، ص ١٩٥ .

([٧٤]) القشيري: الرِّسالة القشيريَّة ، ص ٨٠.

([٧٥]) ابن الخطيب: دِيوَانُه، ص ١٥ .

([٧٦]) ابن الخَطِيبِ: الكَتِيْبَة، ص ٥٥ .

فَاستخدَامُهم لحروفِ الجرّ، مثلاً، بشكلٍ مُتتَالٍ يُوقعُ المَعنى في الغمُوضِ، لا يُفهمُ إلاَّ بطولِ التَّأمُّلِ، كقولِ ابنِ صفوَان، وهُوَ أكثر المُستخدمينَ لهَذَا الأسلوبِ:

جَعَلُوا دَلِيلاً فِيكَ مِنْكَ عَلَيْهِمُ فَبَدا عَلَى تَقْصِيرِكَ الْبُرْهَانُ

فَاخرُجْ إِلَيْهِمْ عَنْكَ مُفْتَقِراً لَهُمْ إِنَّ المُلُوكَ بِالافْتِقارِ تُدَانُ (٧٧)

وقولهِ في قَصِيدةٍ بائيةٍ :

هَرَبْتُ بِهِ مِنِّي إِلَيْهِ فَلَمْ يَكُنْ بِيَ البُعْدُ فِي بُعْدِي فَصَدَّ بِهِ قُرْبِي

فَكـــــانَ بِهِ سَمْعِي كَمَا بَصَـرِي وَكَـــــانَ بِهِ لاَ بِي لِسَانِي مَعَ بِـــــــهِ القُــرْبِ (٧٨)

وإذ نجدُ الغمُوضَ في تبَادلِ المتناقِضَاتِ الثُّنائيَّةِ بينَ القُرْبِ وَالبُّعدِ في البَيتينِ السَّابِقِينِ، فإنَّنا نجدُ الغمُوضَ ذَاتَهُ بين البقَاءِ وَالفنَاءِ، وَالحضُورِ وَالغيبةِ في قولِ ابن الجَيَّابِ :

فَبَقَّائِي بِهِ فَنَائِيَ عَنِّي وَحُضُورِي أَرَاهُ عَنِّي مَغِيبَا

يَا جَنانِي وَيَا لِسَانِي اذْكُرَاهُ لاَ تَغِيبَا عَنْ ذِكْرِهِ فَتَخِيبَا

ذِكْرُهُ قَدْ تَقَدَّمَ الذِّكْرَ مِنِّي رُبَّ أَمْرٍ رَأَيْتُه مَقْلُوبَا(٧٩)

وَفِي كَثيرٍ منَ الأحيَانِ يَخلطُ الشَّاعرُ المُتنَاقِضَاتِ؛ للتَّعبيرِ عن حَالةٍ منَ الوَصْلِ، تشبه الاتِّحادَ والحلولَ(٨٠)، يتعَمَّق من خلالِهَا مع الإشَاراتِ الصُّوفيَّةِ إلى درجةِ الغموضِ في النَّصّ، كقول أبي حيانٍ الأندلسيّ(٨١):

تَفَرَّدْتُ لَمَّا أَنْ جُمِعْتُ بِذَاتِي وَأُسْكِنْتُ لَمَّا أَنْ بَدَتْ حَرَكَاتي

فَلَمْ أَرَ فِي الأَكْوَانِ غَيْرِي لأَنَّنِي أَزَحْتُ عَنِ الأَغْيَارِ رُوحَ حَيَاتِي(٨٢)

---

(٧٧) ابن الخَطِيبِ: الإحَاطَة ١/ ٢٢٤ .

(٧٨) ابن الخَطِيبِ: الكَتِيْبَة، ص ٥٥ .

(٧٩) ابن الجَيَّابِ: دِيوَانُه، ص ١٥ .

(٨٠) يُنْظَر تفاصيل أكثر في: ابن الخَطِيبِ: رَوْضَةُ التَّعْرِيفِ، ص٢٠١.

(٨١) مُحَمَّد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيَّان النفري الغرناطي، من أهل غَرْنَاطَة، يُكَنَّى أبا حيان ويلقَّب من الألقاب الشرقية بأثير الدين، نكَّلَ به سلطان زمانه إثر خلافٍ مع أستاذه ابن الزُّبير فركبَ البحرَ واختفى، ثم ظهر بمصر وتوفي فيها، يُنْظَر: ابن الخَطِيبِ: الإحَاطَة ٣/٤٣.

(٨٢) ابن الخَطِيبِ: الكَتِيْبَة، ص ٨٢.

وفي الأساليب الأدبيَّةِ، يتداولُ المُتَصوِّفةُ مصطلحاتٍ، منها المَرْكَزُ، والفناءُ[٨٣]، وَالمُشَاهدةُ، والمَحْوُ والإثباتُ[٨٤]، وغيرها .. وهي متناولةٌ في نصوصِهم الشِّعريَّةِ والنَّثريَّة، فمن ذلك في شعرِ ابنِ الخَطِيبِ :

وَدُرْتُ عَلَى مَرْكَزِي دَوْرَةً يُحَقِّرُ مَنْ دَارَها مُلْكَ دَارَا

وَحَقَّقْتُ إنّيتِي وَهْيَ كَنزٌ فَأَخْرَجْتُهُ إِذْ هَدَمْتُ الجِدَارَا [٨٥]

"فَالمَرْكزُ" هنا هُوَ النَّفسُ، و"الأنيةُ": الماهيةُ، وَ"الجِدَارُ": إشَارةٌ إلى الجدَارِ المذكُورِ في قِصَّةِ سيِّدنَا مُوسَى وَالرَّجُلِ الصَّالحِ ﷺ، فِي إشَارةٍ إلى قولِهِ تَعَالى:﴿فَانطَلَقَا حتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾(الكهف،آية: ٧٧) وقولِهِ عزَّ وَجلَّ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾(الكهف،آية: ٨٢). وهِي قصَّةٌ يُشَارُ إليها بِكَثرةٍ في شعرِ المُتَصوِّفةِ ؛ لِوجودِ فرقٍ بين العلمِ الظّاهرِ وَالباطنِ؛ لأنَّ الرَّجلَ الصَّالحَ يُمثِّلُهم في القصَّةِ بعلمِ البَاطنِ، أو أسرَارِ الأحدَاثِ، في حينِ يُمثِّلُ مُوسى ﷺ أصحَابَ الشَّريعةِ الظَّاهرةِ .

وَلكن قَدْ نَجدُ مَنْ يَسْتَخدمُ لغةَ التَّصَوُّفِ مِنْ دونِ درَايةٍ بِمصطَلَحَاتِهِ وَإشَاراتِهِ، فَيُكشفُ أمرَهُ لدى أهلِ الدِّرايةِ بهَا، كقول أبي العلاء ابن سمَّاكٍ العامليّ، الذي وَقفَ منهُ ابنُ الخَطِيبِ موقفاً، حَيْثُ قَالَ(وَجَهِلَ مَا عِنْدَ الصُّوفيَّة فِي قَوْلِهِ بِاللهِ، ثُمَّ مَعَ اللهِ):

مُنَايَ مِنَ الدُّنيا كِتَابٌ وَخَلْوَةٌ أَكُونَ بِهَا بِاللهِ ثُمَّ مَعَ اللهِ

وَأَنْشُرُ مِنْ ذَاكَ الكِتَابِ مَعَارِفاً لِكُلِّ مُنِيبٍ لِلمُهَيْمِنِ أَوَّاهِ [٨٦]

رابعاً: أثرُ التَّصوُّفِ في المَدَائحِ النَّبويَّة:

كَانَ لِلمتصوِّفةِ – آرَاءً وَسلُوكاً– كَبِيرُ الأثرِ في الشُّعرَاءِ الغرناطيّين وَأشْعَارِهم ، فَقَدْ رَاحتْ آراؤهُم تَفْرضُ وجُودَها عَلَى المَدَائحِ النَّبويَّةِ، وَوَجدْنَا بَعضَ الشُّعرَاءِ يُعجبُونَ بِبَعضِ قَصَائد الشُّعرَاءِ المُتصوِّفةِ، فَقَامُوا بِتَخمِيسهَا، منْ هؤلاء ابنُ خَاتِمَةَ الأنصَاري الَّذِي قَامَ بِتَخميسِ قَصيدةِ الشَّيخِ الصُّوفيّ شهَابِ الدِّينِ الخيميّ[٨٧]

فَقَدْ تَخللتْ شعرَ المَدَائحِ النَّبويَّةِ لَمحاتٌ صُوفيَّةٌ تُنْبئُ عَنْ شَفَافيةِ رُوحِ قَائلِهَا، وَانتمَاءٍ إلى حيَاةِ التَّصوُّفِ أو مَيلٍ إليهَا، وَرُبَّما بَدَا ذلك في صورةِ مُقدِّمَاتٍ زُهديَّةٍ أو مُصطلحَاتٍ صُوفيَّةٍ، أو مَضَامينَ طُرقيَّةٍ . وَكثيراً مَا يكُونُ ذلك في المُقدِّماتِ، وَقَد يكُونُ في أثنَاء المَدحِ، كقولِ ابنِ الجَيَّابِ في مَدحةٍ أوَّلُهَا:

---

(٨٣) ويكون بزوال الرُّسوم جميعاً بالكليَّة في عين الذَّات الأحديَّة، مع ارتفاع مقام المحبوبية، أو الفناء عن العادات والمألوفات بامتثال المأمورات، يُنْظَر: الكاشاني: معجم اصطلاحات الصُوفيَّة، ص٣٦٥.

(٨٤) المحو رفعُ أوصاف العادة، والإثباتُ إقامةُ أحكام العبادة ، يُنْظَر: القشيري: الرِّسالة القشيريَّة، ص٧٣.

(٨٥) ابن الخَطِيبِ: دِيوَانُه، ص ٣٨٥ .

(٨٦) ابن الخَطِيبِ: الكَتِيْبَة، ص ٢٠٠ .

(٨٧) ينظر: ابن خَاتِمَةَ: دِيوَانُه، ص ٣٤ .

أَمَرُوا فَكُنْ للأَمْرِ جِدَّ مُطِيعِ وَدَعَوْا فَكُنْ لِلقَوْلِ خَيْرَ سَمِيعِ

وَمِنهَا بعدَ أبيَاتٍ سبعةٍ:

هَذِي مَنَازِلُهُمْ فَسَقِّ رُبُوعَهَا سُحْبَ الدَّمُوعِ مَشُوبَةً بَنَجِيعِ

كُشِفَ الحِجَابُ فَلَمْ تُشَهِدْ نُورَهُمْ لَوْلاَ الْحِجَابُ رَأَيْتَ كُلَّ بَدِيعِ[٨٨]

١

وَتَأثيرُ النَّزعَاتِ الصُّوفيَّةِ، مع التَّسلِيمِ بِوجُودِهِ في المدَائحِ النَّبويَّةِ، ليسَ بِالعَميقِ ولا الوَاسعِ، عَلَى الرَّغمِ مِنَ الصِّلةِ الوَثِيقةِ بينَ الغَرضِينِ، في المَوضُوعِ وَالنَّشأةِ، فَقَدْ رُبَطا بصلةٍ في النَّشأةِ وَالتّطوُّرِ. قالَ د. زكي مبارك: (إنَّ المَدَائِحَ النَّبويَّةَ مِنْ فُنُونِ الشِّعرِ الَّتِي أَذَاعَها التَّصَوُّفُ)[٨٩]. وقالَ د. شوقي ضيف: (وَانْبَثَقَتْ مِنَ الشِّعرِ الصُّوفِيّ مُنْذُ ابْنِ دُرَيْدٍ في أَوَائِلِ القَرْنِ الرَّابِعِ الهِجْرِي مَدَائِحُ نَبَوِيَّةٌ عَطِرَةٌ بِالسِّيرَةِ الزَّكِيَّةِ)[٩٠]، وذكر د. عباس الجراري أنَّ هَذَا الفنَّ قد (وَجَدَ صِغَتَهُ المُكْتَمِلَةَ حِينَ احْتَكَّ بِالتَّصَوُّفِ)[٩١].

وَمِنْ ثَمَّ ، فَلا غَرَابةَ أنْ نَجدَ بعضَ الخَصَائصِ المُشترَكةِ وَالتَّدَاخلَ، أحياناً، بينَ المَدَائح النَّبويَّةِ وَشِعرِ التَّصوُّفِ، وَلكنَّه مُفْتَقِرٌ إلى الأدلَّةِ الكَافيةِ عَلَى عمقِ تلك الصِّلةِ، كَمَا أنَّ الفرُوقَ بينَ الفنَّينِ لا تخْفى عَلَى مُسْتَوى اللُّغةِ وَالأفكَارِ وَالأخيلةِ، نَوعاً وَعمقاً وَوضُوحَ تَعْبِيرٍ .

وتبقى علاقةٌ أخرى بين الأدبِ الصُّوفيّ وَالمدَائحِ النَّبويَّةِ، وهي يَقظةُ الشُّعُورِ الدِّينيّ، في فترةِ القرن السَّابعِ الهجري، وَكانَ القرنُ الثَّامِنِ امتدَاداً لهُ في ذلك الازْدِهَارِ .

وَيَظَلُّ أوضحُ جَامعٍ مَعنَويّ بينَ شعرِ المَدَائحِ وَفنّ الشِّعرِ الصُّوفيّ هُوَ التَّعبيرُ عنْ المَحبَّةِ، وَأكثرُ أمثلتِهِ لِمُتصوّفةٍ يَهيمونَ بِذكرِ الأمكنةِ الحِجَازيةِ؛ تَشوُّقاً إلى سَاكِنهَا ﷺ، وَفِي ذلك يقولُ أبو عمرو بن عبادٍ النَّفزيُّ:

أَهْمِي المَدَامِعَ كَيْ أَرْوَى فَتُعْطِشُنِي وَأَلْزَمُ الذِّكْرَ للسَّلْوَى فَيشْجِينِي

يَا أَهْلَ نَجْدٍ وَمَجْدِي أَنْ أُحِبَّكُمُ لاَ أَطْلُبُ الوَصْلَ ،عِزُّ الحُبَ يُغْنِينِي [٩٢]

وَإلى هَذَا النَّوعِ منَ المحبَّةِ يَنْصَرفُ جَانبٌ مِنَ المُقدّمَاتِ الغزليَّةِ ذُكِرتْ فيهَا أسماءُ أمكنةٍ لآخرين، أو تلك الَّتِي تُوجهُ إليهم مُبَاشرةً ، كَقَولِ ابن جَابرٍ الأندلسيّ:

وَمنْ أَجْلِكُمُ أصبو لِبَرِدِ الصَّبا إذا تَجرُّ صباحاً فوق أرضكم بُردا [٩٣]

---

(٨٨) ابن الجَيَّابِ: دِيوَانُه، ص ١١٩. كُشِفَ : ولعل المراد " سدل "، أو أنَّ المعنى يختلف بين الحجاب الأوَّل والثَّاني، أي كُشِفَ حجابهم، ولولا حجابك لرأيتهم، وهَذَا الاحتمال ضعيف .

(٨٩) مبارك، د. زكي: المَدَائح النَّبويَّة (الشَّركة العالمية للنَّشر، القاهرة،١٩٩٠م)ص ١٤.

(٩٠) د. شوقي ضيف: عصر الدُّول والإمارات (دار المعارف، القاهرة، د. ت) ص ١٤ .

(٩١) د. عباس الجراري: الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه،(مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٧٩م) ص ١٤٣ .

(٩٢) ابن الخَطِيبِ: الكَتِيْبَة، ص ٤٣ .

كَمَا تَجلَّى أثرُ المُتصَوِّفةِ في تنَاولِ الشُّعرَاءِ الغرناطيّين لِفكرةِ الحَقِيقةِ المُحَمَّديَّة أو الكلمةِ المُحَمَّديَّة أو النُّورِ المُحَمَّديّ الَّذِي ذَهَبَ إلى أنَّ للنَّبيّ مُحَمَّدٍ ﷺ وجُوداً قبلَ وجُودِ الخَلقِ، وقبلَ وجُودِه الزَّمَاني في صُورةِ النَّبيّ المُرْسَلِ، وَأنَّ هَذَا الوجُودَ قَدِيمٌ غَيرُ حَادِثٍ.

وَقَد احتلَّتْ هَذِهِ الفكرةُ منزلةً راقيةً لَدَى المتصوِّفةِ، وَانْتَشَرتْ في بيئاتِهم، وَعَملُوا عَلَى بثِّهَا وَنشرِهَا، مَا وَسعتهم المُحَاولةُ، وَمَا مِنْ شَاعرٍ مُتصوِّفٍ إلاَّ تَنَاولَهَا، حتَّى أضْحتْ عُنصراً مُهمّاً مِنْ عَنَاصِرِ قَصِيدةِ المَدَيحِ النَّبويّ لِدِيهم.

وتَنَاولَ الشُّعرَاءُ الغِرْنَاطِيون هَذِهِ الفِكرةَ القَائمةَ عَلَى قِدمِ خَلقِ النَّبيّ، فَقَد سَبقَ وجودُهُ كُلَّ المخلوقَاتِ، وَأنَّهُ العلَّةُ الحَقِيقيَّةُ لِلوجُودِ، وَسببُ الحيَاةِ، يَقُولُ ابن الخَطِيبِ:

خَصَّكَ اللهُ بِالكَمَالِ وَزَنْدُ الـ ... كَونِ لَمْ تَقْتَرِنْ بِكَفِّ اقْتِدَاحِ
قَبْلَ أنْ يُوجِدَ الوجُودَ وَأنْ يُثْـ ... ـحِفَ بِالنُّورِ ظُلْمَةَ الأشبَاحِ[٩٤]

وَابنُ الخَطِيبِ يُضْفِي عَلَى مَفهُومِ النُّبوةِ بُعداً فَلسَفياً، مِنْ خِلالِ مَظهرِينِ لِحَقيقةِ النَّبيّ، الأوَّل: فِي عَالمِ الأسرَارِ، حَيْثُ تَجْتَلي ذَاتُه ﷺ بِمَلامحِ النُّورِ الإلهيّ، وَالثَّاني: فِي عَالمِ الحسّ، حَيْثُ اصطَفَاهُ اللهُ؛ لِيَكونَ هَادِيّاً لِلخلقِ وَسَبباً فِي شِفَاءِ عِللِهِم، وَلَمْ يكنْ مُحَمَّدٌ ذا مَظْهرٍ بَشريّ؛ لولا أنَّ اللهَ اختَارَهُ لأدَاءِ رِسَالتِهِ؛ لأنَّهُ في حَقِيقَتِهِ يَعلُو عَلَى هَذَا المَظْهرِ، فَيَقُولُ:

تَقَدَّمْتَ مُخْتَاراً تَأخَّرْتَ مَبْعُثاً ... فَقَد شَمَلَتْ عَلياؤُكَ القَبْلَ وَالبَعْدَا
وَهلْ هُوَ إلاَّ مَظْهَرٌ أنْتَ سِرُّهُ ... لِيمتَازَ فِي الخَلْقِ المُكِبُّ مِنَ الأهْدَى[٩٥]

كَذلك أضحَى خَتْمُ الحَدِيثِ عنِ النَّبيّ ﷺ بِتكرَارِ الصَّلاةِ وَالسَّلامِ تَقْلِيداً رَاسِخاً لَدَى الشُّعرَاءِ الغِرْناطيّين وغيرهم مِمَّنْ مَدَحُوا النَّبيّ ﷺ في أشعَارِهِم ، وهَذَا المَلمحُ لهُ مَنْزلةٌ خَاصَّةٌ لدى المُتصوِّفةِ، فَهُوَ في عُرفِهم ذِكْرٌ ، وَالذِّكرُ لِديهم أفضلُ مِنَ الدُّعَاءِ؛ لِذَا دَرَجَ الشُّعرَاءُ المُتَصوِّفةُ عَلَى خَتمِ مَدَائحهم النَّبويَّةِ بِالصَّلاةِ وَالسَّلامِ عَلَى النَّبيّ، فَسَلكَ الشُّعَرَاءُ الغِرْنَاطيون طَريقَهم هَذِهِ ، فَلا تَجِدُ مِدحةً نبويَّةً ، طَالتْ أم قَصُرتْ، إلاَّ وَذيّلتْ بِصِيغةٍ أو أكثر منْ صيغِ الصَّلاةِ وَالتَّسليمِ .

وَلَمْ يَقِفْ أثرُ المُتَصوِّفةِ عندَ هَذَا الحدِّ، بلْ تَعَدَّاه إلى إيثَارِ بدءِ قَصَائدِ المَدِيحِ النَّبويّ بِالغزلِ، وَكذلك استخدَامِ بعضِ الرُّمُوزِ ذاتِ الدِّلالاتِ الصُّوفيَّةِ ؛ فَالآس وَالرّيحَانُ يَرْمزَانِ إلى حِفْظِ العَهدِ وَدَوَام المَحَبَّةِ، وَدَعدُ وَسلمى تكنيانِ عنْ جوَانبَ مِنَ الحقَائقِ الإلهيَّةَ، وَالحَادِي يَرْمزُ لِدِيهم إلى الشَّوقِ الَّذِي يَحْدُو بِالهمِ إلى منَازِلِ الأحبَّةِ.

. النتائج والمناقشة:

(٩٣) ابن جابر الهواري: شعر ابن جابر الهواري، حققه د. أحمد فوزي الهيب(دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ٢٠٠٧م) ص ٣٥ .

(٩٤) ابن الخَطِيبِ: دِيوَانُه، ص255 .

(٩٥) ابن الخَطِيبِ: دِيوَانُه، ص 348.

إنَّ اللُّغةُ الشِّعريَّةُ استَمَدَّتْ ألفَاظَها المِعْجَميَّةَ لدى الشاعر الصّوفية مِنْ حقْلِ الدّينِ، وَحَقْلِ الذَّاتِ، وَحقلِ العَاطِفَةِ، وَحَقْلِ الطَّبيعةِ الأنْدَلُسيَّةِ وَالحِجَازيَّةِ، وَحَقْلِ المكَانِ وَحَقْلِ التَّصوُّفِ. فامتَازَتْ بِالجزَالةِ، وَفخَامةِ الكلمَاتِ، وَقوَّةِ السَّبكِ، وَرَصَانةِ الصِّيَاغةِ، وَهِيمنةِ المعجمِ التُّراثيّ، وَغلبةِ الألفَاظِ الغَريبةِ غيرِ المَألوف، كِتَابةً وَتَعْبيرًا وَصِيَاغَةً.

وَاستخدَمَ الشَّاعرُ الغِرْنَاطيُّ الجُملَ الفعليَّةَ الدَّالةَ عَلَى التَّوترِ وَالحَرَكَةِ، وَالجُملَ الاسميَّةَ الدَّالةَ عَلَى الثبَاتِ وَالتَّأكِيدِ، وَنَجِدُ كذلك المُزَاوجةَ بينَ الأسَاليبِ الخَبَريَّةِ وَالإنشَائيَّةِ قَصْدَ خَلْقِ الوَظِيفةِ الشِّعريَّةِ، بِمُكونَاتِهَا، الإيحَائيَّة وَالمَجَازِيَّةِ، وَغالبًا مَا استَوْجَبَ تنَاولُ السِّيرةِ وَسردُ المُعجزَاتِ الأسلُوبَ الخَبَريَّ، في حينَ كَانَ الأسْلُوبُ الإنشَائي وَاضحاً في إظهَارِ المشَاعِرِ وَالانطبَاعَاتِ الذَّاتيَّة.

وَعالجَ الشُّعرَاءُ الصُّورَ الشِّعريَّةَ الحسِّيَّةَ القَائمةَ عَلَى المُشَابهةِ، مِنْ خِلالِ الاستعَانةِ بِالصُّورةِ المُجَاورةِ ؛ عبرَ المَزجِ بينَ المَجَازِ المُرْسلِ وَالكنَايةِ في التَّصويرِ وَالبيَانِ . وَاتَّخذتِ الصُّورُ البَلاغيَّةُ ذَاتُ النَّطَاقِ الحسّيّ، طَابعًا رَمْزيًّا، خَاصَّةً فِي المقَاطعِ الصُّوفيَّة العرفَانيَّةِ .

يتَّضحُ لنا – مِمَّا سبقَ ذكره– أنَّ شعرَ التّصوّف في مملكةِ غَرْنَاطَة شعرٌ صادقٌ بعيدٌ عن التَّزلُّفِ والتَّكسُّب، يجمعُ بين الدِّلالةِ الحرفيَّةِ الحسّيَّة والدِّلالة الصُّوفيَّةِ الرُّوحانيَّةِ.

كَمَا يَنْدَرجُ هَذَا الشِّعرُ ضَمنَ الرّؤيةِ الدِّينيَّةِ الإسلاميَّةِ، في ظلّ وَاقعٍ سِيَاسيٍّ وَدِينيٍّ مُرْعبٍ، وَيستمدُّ لغتَهُ وَبيَانَهُ وَإيقَاعهُ وَصورَهُ وَأَسَاليبَهُ مِنَ التُّرَاثِ الشِّعريّ القَديمِ؛ مِمَّا أسقطَ هَذَا الشِّعرَ، في كثيرٍ من الأحيَانِ ، في التِّكرَارِ وَالابتذَالِ وَالاجترَارِ؛ بِسببِ المُعَارضةِ وَالتَّأثرِ بالشِّعرِ القديمِ، صِيَاغةً وَدلالةً وَمَقصدِيةً.

من هذا المنطلق نستنتج أن الشعر في مملكة غرناطة لعب دوراً مهماً في الحياة الإنسانية من النواحي كافة، فعلينا العمل على تجديد الرؤية التقليدية لهذا العصر ودراسته وفق النظريات العلمية والأدبية والفكرية الحديثة.

المصادر والمراجع

- ابن الأحْمَرِ، إسماعيل بن يوسف بن محَمَّد. *نَثْيِرُ فَرَائِدِ الجُمَان في نظم فحُولِ الزَّمَان*، تحقيق د. محَمَّد رضوان الدَّاية (١٩٦٧م، دار الثقافة، بيروت) .
- ابن جابر الأندلسي، محَمَّد بن أحمد بن علي الهواري. *شعر ابن جابر الهواري*، صنعه د. أحمد فوزي الهيب (٢٠٠٧م، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١)
- ابن الجيَّابِ، علي بن محَمَّد . *الدِّيوان*(صورة من مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم٢٤٢٤،ولم يحقق حتَّى الآن).
- ابن الخطيب، محَمَّد بن عبد الله لسان الدين، السلماني. *الإحَاطَة في أخبار غَرْنَاطَة*، تحقيق محَمَّد عبد الله عنان (١٩٧٣م، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢).

. *الديوان*، صنفه وحقَّقه وَقَدْم له الدكتور محمَّد مفتاح (١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدَّار البيضاء، المغرب، ط١).

. *رَوْضَةُ التَّعْرِيفِ بالحبّ الشَّريف*، تحقيق عبد القادر عطا(دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت)

. *الكَتِيبَة الكَامِنَة في من لقيناه بالأَنْدَلُسِ مِنْ شعراءِ المائة الثَّامنة:* تحقيق د. إحسان عباس(١٩٦٣م، دار

الثَّقافة، بيروت).
. *نُفَاضَة الجِرَابِ في علالة الاغتراب*، تحقيق فاغية السعدية(١٩٨٩م، دار النجاح، الدار البيضاء).
–الزُّبيدي، السيد مرتضى: *تاج العروس من جواهر القاموس*(مكتبة الحياة، بيروت، د.ت) مادة: صوف.
– ابن زُمرك، محَمَّد بن يوسف الصريحي،: *الدِّيوان*، تحقيق محَمَّد توفيق النِّيفر (١٩٩٧م، دار المغرب الإسلاميّ، المغرب، ط١)
–الشَّريف الجرجاني، عليُّ بن محمَّدٍ. *كتاب التَّعريفات*(١٩٨٨م، دار الكتب العلمية، القاهرة، ط٣).
– ابن عزيم، علي الأنْدَلُسي. مختارات ابن عزيم الأنْدَلُسيّ، تحقيق عبد الحميد الهرامة(١٩٥٩م، الدَّار العربية للكتاب، ليبيا وتونس).
–القشيري، عبد الكريم بن هُوَزان. *الرِّسالة القشيرية في علم التَّصوُّف*، تحقيق: معروف زريق وعلي عبد الحميد بلطة جي (١٩٨٨، دار الخير، دمشق، ط١).
– الكاشاني، عبد الرّزاق. *معجم اصطلاحات الصُّوفيَّة*، تحقيق عبد العال شاهين(١٩٩٢م، دار المنار، بيروت، ط١)
– المَقَّري، شهاب الدّين أحمد بن محَمَّد التلمساني. *نفحُ الطِّيبِ في غصن الأنْدَلُس الرَّطِيبِ*، تحقيق د. إحسان عباس (دار صادر، بيروت، ٢٠٠٤ م).

–المراجع

– جراري، عباس. *الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه* (١٩٧٩م، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء)
– ضيف، شوقي. *عصر الدُّول والإمارات*،(دار المعارف، القاهرة، د. ت)
– مبارك، زكي. . *المَدائح النَّبويَّة* (١٩٩٠م، الشَّركة العالمية للنَّشر، القاهرة،)